

نظريّة الخليل المعجميّة



دكتور

محمد يوسف حبلص

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

نظريّة الخليل المجمّعية

دكتور

محمد يوسف حبلص

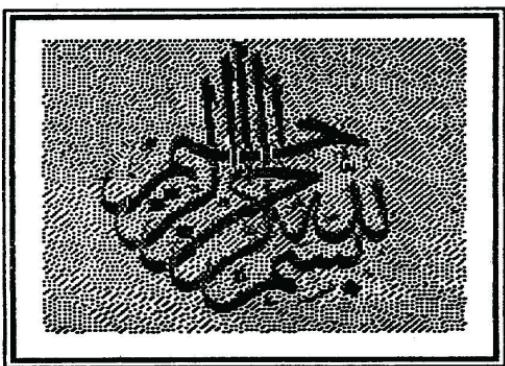
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الناشر

دار الثقافة العربية

١٤١٢ - ١٩٩٢ م







الإهداء

إلى أمّنا الرّعوم دار العلوم .

بمناسبة الاحتفال بمرور عشرين و مائة عام على إنشائها وإنعاماً بكل القيم
التبيلة التي من أجلها أنشئت ، وامتد عطاها على يد كوكبة من صفوّة علماء هذه
الأمة ، في علوم العربية والدين الإسلامي ، مستهدفين وصل الجوانب المضيّفة في
تراثنا العربي - وفيه الأصالة - بما يناظرها مما يعالج العلماء في العصر الحديث -
و فيه المعاصرة - وتلك هي الأمانة التي حملها - ولم يزل - تلاميذ حفني ناصيف
والغنيمي هلال وإبراهيم أنيس .

قالوا عن الخليل

أكلت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه وهو في خُصّ لا يشعر

النضر بن شميل

ألف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفرهودي رضوان الله عليه كتاب العين
فأتعجب من تصدى لغايته ، وعنى من سما إلى نهايته ، فالمتصف له بالغلب معترف
، والمعاند متكلف ، وكل من بعده له تبع ، أقر بذلك أم جحد ، ولكن رحمة الله
ألف كتاباً مشاكلاً لثقوب فهمه وذكاء فطنته .

أبو بكر بن دريد

اجتمعنا بمكة أدباء كل أفق فنذاكرنا أمر العلماء فجعل أهل كل بلد يرتفعون
علماءهم ويضعونهم ويقدمونهم حتى جرى ذكر الخليل فلم يبق أحد إلا قال :
الخليل أذكي العرب ، وهو مفتاح العلوم ومصرفها .

أبو محمد التوجي عن مراتب النحويين



مقدمة

إن من يتابع البحث اللغوي عند العرب عامة ، والدرس المعجمى على وجه الخصوص ، سيمجد الخليل بن أحمد الفراهيدي بتوأً مكانة المعلم الأول ، والأستاذ المحقق ، والإمام المبدع ، ولا يكاد يناظره الريادة في علوم العربية أحد . يجمع على ذلك السلف والخلف ، القدماء والحدثون على سواء .

وإذا كانت رriadته في علم النحو والعروض والمعجم في غير حاجة إلى تأكيد أو إثبات فإن تناول الداسين له قدماً وحديثاً على مستوى المعجم قد اقتصر على الإشارة إلى أنه أول من وضع للعربية معجماً أو صنف قاموساً بهذا الوصف العلمي لكلمة معجم أو قاموس ، وليس من شك في أن وضع أول معجم في آية لغة من اللغات على نحو وترتيب جديدين لاسابق لهما فهو من أعمال الصفة العابقة بالآلدين كما يقول محققاً العين في تقديره .

هذا الإطاء على جهد الخليل المعجمي بوصفه مؤلفاً مصححاً هو الذي دفعني إلى إعادة النظر في هذا المجهد ، حيث يرى البحث أن تقديم جهد الخليل على هذا النحو فيه تستطيع شديد لإبداعه ، فإن يكن وضع أول معجم في لغة العرب إنجازاً هائلاً ، فإن وضع نظرية علمية منضبطة لنظام المعجم العربي لهو إبداع أكثر عظمة ، وأقرب إلى روح المجهد الذي قدمه الخليل ، وشتان بين تأليف أو تصنيف معجم في لغة ما ، وبين وضع نظرية علمية تفسر نظام المعجم بوصفه أحد أنظمة اللغة ، الأول فن يجيده حرفيون فيه والثاني علم لا يُرِزُّ فيه إلا علماء في اللغة .

وهذه الدراسة معنية بإبراز جهد الخليل بوصفه نظرية علمية في المعجم أكثر منه تصنيفاً لقاموس كما عنى الباحثون طويلاً بتقديم هذا المجهد .

ولتحقيق هذه الغاية قسمت البحث إلى مقدمة ، وخمسة فصول وخاتمة .

عالجت في الفصل الأول المنطلق المنهجي للبحث وهو بيان طبيعة عمل

الخليل بوصفه نظرية ، وميزت ذلك من عمل سواه من علماء المعاجم الذين جاءوا بعده بوصف ما قاموا به مجرد صناعة معجمية .

وجاء الفصل الثاني بعنوان الأساس الصوتي ، وفيه عالج البحث سبب لجوء الخليل لهذا المنهج دون غيره ، واعتمدت على نصوص الخليل في إعادة قراءة هذا الأساس الذي اتكاً عليه في فهم بنية الكلمة العربية ، بحيث كان عمله الصوتي مجرد وسيلة لغاية وليس درساً صوتياً خالصاً .

وفي الفصل الثالث عرضت للأساس الكمي وأبرز البحث السبب الذي دعا الخليل إلى هذا التقسيم ، فكان عمله نوعاً من حصر أقل كم لحروف الكلمة وأقصى كم يمكن أن تبلغه ، والأمر ليس تصنيفًا لأبواب أو مداخل معجمية ، وإنما هو إجراء يحثى للتعرف على طبيعة الكلمة العربية ، يتعاون مع بقية الإجراءات الأخرى للكشف عن فلسفة النظام المعجمي .

وفي الفصل الرابع عرضت للأساس الثالث وهو الأساس التقليبي بوصفه آلية منهجية تكشف عن طاقات اللغة من جانب وتنسر طبيعة المادة المعجمية الأكثر دورانا ، والسلسل الصوتية الأكثر ترددًا من جانب آخر ، وما يقابل ذلك من مواد أقل شيوعاً ، كما طرح البحث أبعاد هذا التصور وامتداداته في الاستفادة من نظرية المهمل أو الفضل عند علماء الرياضيات أو في علاقة نظرية المهمل والمستعمل عند الخليل على المستوى المعجمي ببعض المفاهيم اللغوية الحديثة على مستوى النظرية اللغوية عامة والتقوية على وجه الخصوص .

وجاء الفصل الخامس ليطرح الأساس الرابع عند الخليل وهو الأساس الجذرى بوصفه الفلك الذي تدور فيه بقية الأساس والرابط الذي يصل الكلم العربي ، وعرضت لخصوصية هذا الأساس بالنسبة للغة العربية .

وطرح البحث أبعاد فكرة الجذر في البحث اللغوى عند الخليل سواء ما

اتصل منها بفكرة الأصل والفرع عامة أم أصل الكلمة خاصة ، كما تناول في هذا الإطار الاتجاهات اللغوية المختلفة التي عالجت فكرة الأصل كالاتجاه القائل بالثنائية والاتجاه القائل بالثلاثية وأبعاد ذلك وما ترتب عليه من معالجات للظواهر اللغوية كالنحو والتلقي والإبدال ، كل ذلك في إطار البحث عن أثر الخليل في هذه الاتجاهات ، ومنهجه في معالجة هذه الظواهر في ضوء معالجات خالفيه من اللغويين وختم البحث باستعراض عدد من نتائج الدراسة بعد تقديم ملخصة مركزة لما عالجه البحث أسلمة إلى هذه النتائج .

ومن الأمانة والعرفان بالفضل أن أذكر جهد عدد من الأصدقاء الذين كان لهم على صاحب البحث مكراة تشجيعي على مواصلة البحث في هذا الموضوع وتزويدى بطائفة من المراجع ، وأخص بالشكر في هذا المقام صديقى الدكتور محي الدين محسوب ، الذى كان يسألنى عن هذا البحث أكثر مما يسألنى عن ابنى ، وكان هذا البحث موضوعاً على رأس قائمة كل حديث جمعنى به على مدى أكثر من عام ، وأرجو أن يكون البحث على مستوى الحوار الجاد الذى دار بيننا حوله . كما أشكر الصديقين الدكتور خليل عمارة والدكتور منذر العياشى لتشجيعهما التواصل ولما أمنداني به من مراجع أفادتني في إضافة بعض مسائل عرض لها البحث . كما أشكر الصديق الدكتور محمد الهنداوى على تفضله بمراجعة إحصاءات البحث ومباركته لطبيعة المعالجة التي عنى بها – كما أشكر كل من شارك في إخراج هذا العمل من طباعة ونشر .

والله أسأل أن ينفع به طلاب الدراسات اللغوية عامة ، وشدة الدرس المعجمى على وجه المخصوص ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب .

محمد يوسف جبلص

جده – فى رمضان ١٤١٢ هـ

مارس ١٩٩٢ م

الفصل الأول
بين النظرية والتطبيق



بين النظرية والتطبيق

إن اللغة أية لغة هي مجموعة من الأنظمة اللغوية ، تألف فيما بينها منظومة واحدة ، أو نظاماً كبيراً هو اللغة ، فاللغة إذن نظام يشمل عدة أنظمة . هي النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام التحوى والنظام المعجمي والنظام الدلالي ، وكل نظام من هذه الأنظمة يستقل بدراسة فرع من فروع علم اللغة النظري Theoretical linguistics فعلم الأصوات العام phonetics يتحذ النظم الصوتي موضوعاً له ، وعلم الصرف Morphology ، يعني بدراسة النظام الصرفي ، على حين يختص علم التحوى Syntax بدراسة النظام التحوى ، كما يستقل علم المعجم Lexicology ببحث النظام المعجمي ، بينما ينفرد علم الدلالة بالنظر في أسرار النظام الدلالي للغة^(١) .

وهذه الأنظمة تعمل معاونة متكاملة في إطار نظام واحد كبير هو اللغة يعني بدراسة دراسة علمية تهدف إلى الكشف عن حقيقة النظام اللغوي علمً مستقل يعرف بعلم اللغة النظري . وعلاقة العلوم اللغوية الفرعية بعلم اللغة هي علاقة الخاص بالعام كما هو واضح .

والكلام السابق يتجاوز الخلافات في تقسيم العلوم اللغوية بين الاتجاهات المختلفة والمدارس العلمية إلى الحد الأدنى من الاتفاق ، كما يتجاوز اعتبار المعجم أو علم الدلالة نظامين من أنظمة اللغة . من منطلق أن كلاً منها جانب من جوانب النظام اللغوي ، وإذا لم يكن ممكناً تجاوز هذا الجانب في التحليل اللغوي أو إدراك دورة في أداء النظام لوظيفته ، أو في فهم النظمية الواضحة في علاقة عناصر كل نظام منها على حده وعلاقتها بالعناصر اللغوية في الأنظمة اللغوية الأخرى . إذا كان ذلك كذلك فإن المعجم كما يظهر من هذه الدراسة نظام مستقل ، والدلالة كما استقر عليه أغلب الدراسين نظام كذلك مستقل وكلاهما قسم لبقية الأنظمة

١ - انظر دراسات في علم اللغة ج ٢ ص ١٠ - ١٢ .

الأخرى التي تنصهر معاً في بوتقة النظام اللغوي العام فإذا كان النظام اللغوي هو مجموعة من القواعد والقوانين القابلة للوصفت والتوضيحة والتي يعد الخروج عليها خرقاً للنظام يؤدي إلى خلل في أداء اللغة لوظيفتها . فإن هذا النظام ينقسم بدوره إلى أنظمة داخلية أصغر هي الأنظمة التي سبقت الإشارة إليها ، وهي تخضع لنفس الضابط .

والمعجم في ضوء ذلك نظام له قواعده وقوانينه التي يمكن تحديدها والتعرف عليها ، فالكلمة في نظام المعجم لابد أن تبني من أصوات اللغة صاحبة النظام اللغوي ، وإذا بنيت من أصوات خارج هذا النظام عدًّا ذلك خروجاً على النظام المعجمي للغة ، الأمر الذي يقتضي انخضاع الكلمة لسن اللغة المعجمي يحدث ذلك حين تقابلنا أصوات كالكاف الفارسية والباء التي تنطق كالفاء العربية وكذلك الفاء في اللغات الأوربية ، والراء الفرنسية وكتابه الكلمات من سلاسل متنوعة في النظام المعجمي مثل جق ، عج ظج ، قل .. الخ ولا يقول العلماء إن هذه الكلمة من اللغة إلا بناءً على قواعد المعجم اللغة ، والحكم بكونها ليست من كلمات اللغة إنما يكون وفقاً لذات القواعد ، ومجيء الكلمة في اللغة العربية مبنية من عشرة أحرف مثلاً يجعلنا نقطع بأن الكلمة غير عربية لأن قواعد بناء الكلم في معجم العربية الذهني يقطع بالتأكيد الكلمة سواء أكانت اسمًا أم فعلًا من أكثر من خمسة أحرف أصلية phonemes وتحديد كم المستعمل في اللغة وتميزه من المهم يخضع لضوابط معينة ، ومعرفة الأصل الذي تبني منه الكلمة وكيف تبني تخضع لضوابط وقواعد أخرى كل ذلك يمثل بعض عناصر النظام المعجمي .

ولعل المحك العملي البارز القادر على التثبت من نظامية المعجم ونظمية الدلالة شأن نظامية الأصوات والصرف والتحوّل هو المعنى . فإذا كان المعنى يتأثر بأى خلل مصدره المعجم فالمعجم إذن نظام ، ويكون ذلك بوضع وحدة معجمية في تركيب وهى فارغة من المعنى ، أو ببناء غير صحيح ، أو من أصوات غير

أصوات اللغة ، وقس على ذلك الحال الذي يترتب على عدم مراعاة عناصر النظام الدلالي الذي جزءه الأول مرده إلى المبني بكل عناصره الصوتية والصرفية والتحويمية والمعجمية وجزءه الآخر السياق الخارجي بكل عناصره المعروفة فهل يغيب أى عنصر مما سبق ويبقى المعنى كما هو ؟ إذا كانت الإجابة بالنفي ، وهى كذلك بالقطع ، فالدلالة نظام كمية الأنظمة الأخرى^(١) .

وقد بني أستاذنا الدكتور تمام دعواه في القول بعدم نظامية كل من المعجم والدلالة على أساس تختلف عن الأسس التي يرتكضها البحث لفهم النظم اللغوي ، منها أنه بني تصوره على أساس الفصل بين ما يسمى باللغة وما يسمى بالكلام ، وهو أمر لا يسلم به البحث ولا يبنيه ، ومنها أنه يشترط في النظم أن يصلح للجدولة بحيث يكون للجدول بعد رأسى وبعد أفقى (انظر ص ٣١٣ من العربية معناها وبنها) ، وحين لم ير المعجم صالحًا لذلك لم يعتد نظاما ، وشىء طبيعي ألا يماثل المعجم الأنظمة الأخرى في ذلك لأن البعدين الرأسى والأفقى يمكن التصرف عليهما في النظم المعين من خلال تسييق الوحدات أما في المعجم فيكون قبل وضع الوحدة اللغوية في السياق الأمر الذي يجعل الجدول على التحو الذي قام به غير مجدي في اكتشاف قواعد المعجم بل إن الإجراء الكشفي الصوتى أو الإحصائى الرياضى هو الأنسب لاكتشاف هذه النظامية بالنسبة للمعجم خاصة . ونظامية الدلالية لا أدرى كيف ينفيها وهى مبنية على مجموعتين من القواعد ، الأولى قواعد وقوانين النظم الأخرى ، الصوتية والصرفية والتحويمية والمعجمية ، وقواعد وقوانين الحال التي إذا لم تراع فسد المعنى وفهم على غير الوجه الصحيح .

ولذا تجاوزت الخلافات السابقة وارتضيت ما طرحته قبل من كون المعجم

١ - كان أستاذنا تمام حسان قد عدَّ المعجم مجرد قوائم كلمات كما لم ينظر إلى المعنى بوصفه نظاماً من أنظمة اللغة . انظر العربية معناها وبنها الفصل السابع والثامن .

نظاماً من أنظمة اللغة يعني بدراسة فرع من فروع علم اللغة النظري هو علم المعجم ، فإن طبيعة هذا النظام كما أن موضوع هذا العلم في حاجة إلى بعض بيان .

إن المعجم مصطلح لغوى قد يطلق ويقصد به النظام المعجمى ، وحيث أنه يكون مقصوداً به المعجم الذهنى أو العقلى المراكם فى ذهن الجماعة اللغوية ، أو هو المخزون اللغوى المعرفى الذى يمتلكه ابن اللغة والخاص بمفرداتها ^(١) . وبه يتعرف أبناء اللغة على كلمات لغتهم من خصائص بنيتها التى ألقواها ، وهو الذى يوجه قدرتهم الخلاقة على نسج كلمات تمتلك نفس السمات وذات المقومات فتقتيس قياساً فطرياً على ما وعى من كلمات اللغة ، فتائى الكلمات خارجية لنفس النظام ومتتفقة مع ذات السنن الذى يميز معجم أبناء هذه الجماعة من معجم سواها .

والعلم الذى يقوم بدراسة أسرار الكلمة فى النظام المعجمى على النحو السابق هو على المعجم Lexicalogy ، والذى يتصدى للبحث فى إطار هذا العلم هو العالم اللغوى Linguists ، والوحدة فى المعجم الذهنى هي الكلمة word .

وقد يطلق لفظ معجم على ما يعرف بعلم صناعة المعجم Lexicography أو من صناعة المعجم وهو فرع من فروع علم اللغة التطبيقى Applied linguistics ، يعنى بصناعة القاموس Dictionary يوصفه قائمة من المفردات vocabulary أو مصنفة بطريقة ما ، ومشفوعة ببيان الطريقة الصحيحة لكتابة الكلمة ونطقها وتصريفها ، وشرح معناها أو معاناتها ، وعلى الباحث الذى يقوم بصناعة المعجم والذى يعرف بالمؤلف المعجمى Lexicographer أن يبحث فى طرائق أو أساليب التبويب المعجمى ، محاولاً الارتقاء بالصناعة المعجمية بهدف تيسير مهمة الباحثين فى المعجم ، ويدخل فى صميم عملية آتى كل الوسائل الممكنة لتحقيق هذا

١ - انظر اللسانيات واللغة العربية ص ٣٦٧ وما بعدها . وانظر كذلك المعجم العربى تمامًا

تحليلية جديدة ص ٢٤ .

الهدف لتحديد أفضل وسائل الإيضاح من لوحات وصور ، كذلك محاولة الاستفادة من إمكانات الطباعة من تنويع في اللون وحجم الخط ، وكل ما من شأنه أن يسهل مهمة شدة المعجم بوصفه قائمة مفردات . وتقاس كفاءة هذا العمل بمدى ما وصل إليه واضح القاموس من تبسيط في إجراءات الكشف عن المفيدة ، وفي الإحاطة والشمول والاستقصاء لادة اللغة ، وفي تدارك المعانى الأصلية والفرعية للصيغة .

والفرق إذن بين عالم اللغة الذى يتصدى لنظرية المعجم من جانب وبين المؤلف المصحى الذى يصنف القاموس يشبه الفرق بين عالم الرياضيات النظرى وعالم الرياضيات التطبيقى أو بين المهندس الذى يصمم ، والمعمارى الذى ينفذ التصميم .

واللغويين المحدثون يعون تماماً الفرق بين الدراسة اللغوية النظرية - ومنها دراسة نظرية المعجم - وبين الدراسة اللغوية التطبيقية - ومنها صناعة المعجم ^(١) .
فإلى أي الصنفين من الدراسة المعجمية يتسمى عمل الخليل المعجمى ؟ ...
يتمثل جهد الخليل فى مجال المعجم فى كتاب (العين) ، وهو عند جمهرة الدراسين أول معجم *Dictionary* وضع فى اللغة العربية ^(٢) . وإن كان بعض

١ - انظر فروع الأنسنة ٢٠٦ من كتاب الأنسنة علم اللغة الحديث . وانظر كذلك فى علم اللغة التطبيقى ص ١٢ وما بعدها ، وانظر كذلك علم اللغة وصناعة المعجم ص ٩ وانظر فقه اللغة حمد أبو الفرج ص ١٢٦ .

٢ - كان (العين) معجماً غير معروف حتى منتصف القرن الثالث الهجرى إلى أن جيء به من خراسان ، ودار جدل عريض بين العلماء حول نسبته للخليل ، وأفاض السبوطى فى عرضه فى مزهره ، وقد رجح أكثر الدراسين نسبته إليه ، وفندوا دعاوى المتكرين ، ولمزيد من التفصيل فى هذا الجانب راجع :

المزهر ١٧٧ وما بعدها ، والمعاجم العربية ص ٥٦ - ٦٨ ، والمعجم العربى ١ - ٢٧٩ .

= ١٧٠ - ١٦٤ ، والبحث اللغوى عند العرب

الدراسين يرون أن الحريم لأبي عمرو الشيباني أسبق منه .

ويكاد يجمع القدماء على أن المقدمة أو التأسيس المحمول في مصدر (العين) هي للخليل ، على حين أنهم انقسموا بين مؤيد ومعارض لنسبة الكتاب إليه ، ويعنيني من أمر ذلك هو اتفاقهم على نسبة المقدمة للخليل ، أو اتفاقاً أغلبهم ، فالأزهرى صاحب التهذيب وهو من أشد النكرين لنسبة الكتاب للخليل ، وأكثر المتحاملين على الليث بن المظفر الذى إليه تنتهي رواية العين يقول عن المقدمة : « ولم أر خلافاً بين اللغرين أن التأسيس المحمول في أول كتاب العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، وأن المظفر أكمل الكتاب عليه بعد تلقيه إياه عن فيه ، وعلمت أنه لا يقتضي أحد الخليل فيما أنسسه ورسمه ، فرأيت أن أحكىه بعينه لتأمله ، وتردد فكرك فيه ، وستفید منه ما يلک الحاجة إليه ، ثم أتبعه بما قاله بعض التحورين مما يزيد في بياته وإيضاحه (١) . »

ويكفينى هذا النص فيما أتا بصدره ، فالتأسيس الذى يكاد يجمع الباحثون قدیماً وحديثاً (٢) . هو أهم أجزاء الكتاب لدى . ففى تلك المقدمة طرح الخليل نظرية

= وقد نشر الأب أستناس الكرملى جزءاً منه في بغداد سنة ١٩١٤ ولم يتمه ، ثم قام أستاذنا الدكتور عبد الله درويش بنشر الجزء الأول محققاً تحقيقاً علمياً في بغداد أيضاً منه ١٩٦٥ ولم تصدر بقية الأجزاء ، وقد قام أخيراً الدكتور مهدي المفروسي وإبراهيم السامرائي بتحقيق الكتاب كاملاً ونشر في ستة أجزاء من الحجم المتوسط ، في بغداد أيضاً سنة ١٩٨٠ م ، وعلى النسخة الأخيرة كان اعتمادى في هذا البحث ، عند حديثى عن العين خاصة . وقد رممت إلى إحالى إليه بالرمز (ع) على حين رممت إلى إحالى إلى التهذيب بالرمز (ه) .

١ - هـ : ٤١١ .

٢ - ذكر Haywood « أتنا لستنا متأكدين من أن الخليل كتب كتاب العين ولكن هناك شكاً أقل في أن المقدمة تمثل فكر الخليل » ١-هـ . ولعل وجود بعض الشك حتى في المقدمة راجع إلى تيار الاتهام الذى تعرض لمه العين إجمالاً . انظر 28 Arabic Lexicography, B .

علمية متكاملة تكشف عن وعي وبصر بأسرار نظام المعجم العربي ، تمثيل في اكتمالها وانضباطها كل أعمال الخليل المترفة بالتضخج ، والمتسمة بالاكتمال ، كإبداعه في العروض ، وتأسيسه للنحو .

أما الجزء المشكوك في أمره فهو الجانب من الكتاب الذي يمكن أن ينطلق عليه مصطلح معجم أو قاموس Dictionary ، ولن يكون اعتمادى في هذا البحث على هذا الجزء من الكتاب ، اللهم إلا فيما يمكن أن يدعم الفكرة النظرية بالمثال .

وإذا كان هذا البحث ينطلق من القناعة العلمية بأن الخليل من خلال كتابه العين أو من خلال مقدمته فقط إن أردنا الدقة إنما هو منظر معجمي فليس يعنيه هندي إلا يكون مؤلفاً معجماً ، أو أن يكون باعه في صناعة المعجم أقصر منه في إبداعه التنظيري . هذا إن سلمنا جدلاً – وهو غير ما أعتقد – أن من العين جاء كما أراد الخليل ، أو على التحو الذي اختره في مقدمته ؛ لأن ثمة هنات وقعت في المعجم ، أغلبظن أنها من وضع آخرين ، وهو أمر متوقع إذا وضعتنا في الاعتبار أنه وضع في فترة مبكرة من تاريخ البحث العلمي عند العرب ، وأن كثيراً من الأعمال المماثلة في علوم كثيرة تعرضت لما تعرض له العين من تدخل في النص ، أو خطأ في التسخين ، أو غير ذلك من أسباب ^(١) .

المقدمة إذن أو التأسيس الجمل في أول كتاب العين هو أكثر أجزاء الكتاب اقتراباً من الخليل ، وأدناها إليه من حيث المنهجية والدقة كما سيظهر من ثانيا البحث ، وهي موجودة في النص المحقق من العين ، و موجودة بصورة مشابهة في مقدمة التهذيب للأزهري ، وهو بتحقيق أستاذنا المرحوم عبد السلام هارون ، وثمة نقول كثيرة عن الخليل في الحكم ، والبارع ، ومحتصر العين ، والزهر ، وهي

١ - يقول ثعلب : إنما وقع الغلط في كتاب العين لأن الخليل رسمه ولم يحشه ، ولو كان حشا ما بقى منه شيء ، لأن الخليل رجل لم يُر مثله ، وقد حشا لكتاب أيضاً قوم علماء إلا أنه لم يؤخذ منهم رواية ، وإنما وجد بنقل الوراقين فاختل الكتاب ^{انظر المزهر} : ٨٢/١

كافية لبيان تصوّره عن نظام المعجم ، وإبراز نظرية كما تخيلها .

و قبل أن نسقط مصطلح نظرية على عمل الخليل في العين يجمل أن نعرف ابتداء المقصود بالنظرية و تعرف من خلال ذلك على طبيعة عمل الخليل ، وهل هو من قبيل التّنظير اللغوي في مجال المعجم . كما يفترض هذا البحث ، أم من قبيل الصنعة المعجمية ؟ فالذين نظروا لكتاب العين ولم يتفهموا حقيقة ما انطوى عليه من جهد تنظيري حملوا على منهجه واتهموه بالصعوبة ورداة التصنيف ، فهذا ابن منظور صاحب اللسان يحمل على التهذيب والحكم وهم أكبر معجمين طبقاً نظرية الخليل المعجمية قائلاً « غير أن كلاً منها مطلب عمر المهلك ، ومنهل وعمر المسلك ، وكان واضعه شرع للناس مورداً عندياً وجلاهم عنه ، وارتاد لهم مرعى مربعاً ومنهم منه ، وقد أخر وقدم ، وقصد أن يعرب فأعجم فرق الذهن بين الثنائي والمضاعف والمقلوب ، وبدد الفكر باللقيف والمعدل والرباعي والخمساني فضاع المطلوب ، فأهمل الناس أمرهما ، وانصرفوا عنهما ، وكادت البلاد لعدم الإقبال عليهما أن تخلو منهما ، وليس لذلك سبب إلا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتّبويب (١) . »

فهذا الهجوم الكاسح على منهجه الخليل ومن لفّ لفّه لا يستقيم إلا لأن ابن منظور يقيم هذا المنهج من خلال الصنعة المعجمية ، أما إنه لو كان يمتلك القدرة على تقييم هذا المنهج من زاوية النظرية وهو العلم الذي لا يجيده كما سيثبت هذا البحث لغير حكمه ، ولا أريد أن أتقدم البحث في إصدار الأحكام ، وإنما أترك لهذه الدرامة أن تكون حكماً بين عمل الخليل وبين أحكام ابن منظور ، وللأرقام التي لا تخالى في النهاية كلمة .

١ - انظر مقدمة اللسان ج ١ ص ٧ . وانظر بعضاً من النقد الذي وجه لمنهج الخليل في

الصحاح ومدراس المعجمات العربية ص ٧٩ - ٨٠

مفهوم النظرية اللغوية :

حين يحاول اللغويون تحديد المقصود بالنظرية اللغوية – وفي إطارها تكون النظرية الصوتية أو النحوية أو المعجمية – فإنهم ينطلقون من تعريف النظرية لدى علماء الرياضيات ، وعليه فإن مفهوم نظرية عند اللغويين إنما هو مأخوذ من تعريفهم ، يرى بورباكي Bourbaki أن النظرية هي « تكوين فرضي استنتاجي » وتمثل عناصر هذا التكوين في « عدد قليل من الكلمات التي لا تتبدل » وفي كون هذه الكلمات « تجتمع حسب نظام يتألف من عدد قليل من القواعد التي لا يمكن خرقها ^(١) » .

ومن خلال التعريف السابق يتبيّن لنا أن النظرية تقوم ابتداء على أساس كونها فرضية تم استنتاجها ، وهي محكومة بنظام من القواعد المطردة التي لا خلل فيها ، وحين ننتقل إلى اللغويين أنفسهم ستجد أنهم يدورون بالفعل في نفس الفلك إذ النظرية عندهم هي « تفسير شامل يتناول المعطيات اللغوية ويتحاطاها بالتجاه تفسير التنظيم القائم ضمن هذه المعطيات ، ويتجاه التكهن بأن معرفة هذا التنظيم هي التي سوف تفسر كل المعطيات اللاحقة ، وترتبط صحة النظرية بمقدار صحة هذا التكهن ^(٢) » .

ويرى كثيرون في تحديده لمفهوم النظرية اللغوية على تحديد أهدافها أكثر من محاولة تعرّيفها ، وبناء على ذلك يرى موريس جروس أنه يجب على النظرية « أن تصل إلى وصف الكلمات اللغوية ^(٣) » أما هلمسليف فيرى أن على النظرية اللغوية أن تضع « إجراءات قادرة على وصف أشياء معينة ذات طبيعة محددة وصفاً غير متناقض وشاملاً ، كما يجب أن تكون النظرية عامة ، بمعنى أن

١ - علم اللغة في القرن العشرين ص ٢١٢ .

٢ - الألسنية - النظرية اللغوية ص ١١٥ .

٣ - السابق ص ٢٣٠ .

تضيع في متناولنا مجموعة أدوات تتيح تمييز - ليس فقط - شيء محدد أو شيء سبق أن أخضعني للتجربة ، بل كل الأشياء الممكنة والمفترضة من النوع نفسه ، ويجب أن تصلح الأدوات النظرية التي تستعملها لكل الاحتمالات وليس فقط كما سبق أن التقينا ... كما أن النظرية تختار بين هذه الإجراءات تلك التي تؤمن الوصف الأكثر بساطة ، ولكن أثاحت إجراءات متعددة أوصافاً تكون لنتائجها نفس الدرجة من حيث البساطة فهي تختار تلك التي تبع الطريق الأكثر بساطة ، ندعوا هذا المبدأ المستنبط من مبدأ التجربة مبدأ البساطة » ويضيف هلمسليف في تحدide للنظرية اللغوية وأهدافها « باستطاعتنا إذن أن نقرر قيمة نظرية اللغة وتطبيقاتها من خلال التتحقق من أن النتائج الحاصلة مع كونها متواقة فيها متطلبات غير التناقض والشمول هي في نفس الوقت أكثرها بساطة بقدر الإمكان ... ونشدد على المظهر الواقعى للمسألة من خلال البحث عن الطرق التي تتحقق ضمان ملائمة النظرة ، يجب لذلك إبراز مكونات كل بنية لغوية ، وتفحص النتائج النطقية الناجمة عن إدخالها في التعريف ^(١) .

من كل الطر宦ات السابقة سواء المتصل منها بتحديد مفهوم النظرية أم المتعلق ببيان أهدافها يتبيّن لنا أن النظرية اللغوية ليست سوى :

أ - فرضية استنتاجية تفسر الظاهرة اللغوية .

ب - يجب أن يكون التفسير كلياً ومطرياً ، ويتسم بالشمول .

ج - يجب ألا يكون ثمة تناقض بين معطيات هذه الفرضية بل يحكم عناصرها الأتساق .

د - يحسن أن تكون ملتزمة بمبدأ البساطة في المبادئ التي تحكم عليها ، وفي إجراءات التطبيق كذلك .

ه - أن تكون ملائمة كذلك للغة التي وضعت لها ، وهذا مظهر أساسى لقياس

١ - السابق ص ٢٣١ .

كفاءة النظرية ، وإمكانية التحقيق من صحة الفرضية .

ولو تناولنا على سبيل المثال نظرية الفونيم عند أنصار حلقة براغ ستجد أنها نموذج لنظرية لغوية يتوافق لها كل العناصر التي سبقت الإشارة إليها من قدرتها على تفسير الظاهرة الصوتية واطرادها وشمولها وعدم التناقض في عناصر الفرضية واتصالها بالبساطة ، وإمكانية التطبيق .

فهل جهد الخليل في مجال المعجم هو من هذا القبيل ، هل قدم الرجل فرضية لغوية تفسر نظام المعجم ، وهل عناصر هذه الفرضية تتسم بالأطراط والشمول والبساطة ، وهل هي فرضية ملائمة للعربية ؟ وهل يمكن التأكيد من صحة فرضية الخليل بشكل عملي ؟ هذا ما يسعى البحث جاهدا إلى التأكيد منه .

أسس النظرية عند الخليل :

إن القراءة الهدأة لمقيدة العين ستكشف عن ركيائز محددة أو أسس معينة لا يكاد يخطفها التأمل ، ويشكل كل أساس منها عنصراً جوهرياً من عناصر المنهج ، وتعاون هذه العناصر أو الأسس الأخرى لتشكل فرضية علمية أحسبها قادرة على أن تقدم أفضل تصور منهجي لفلسفة المعجم العربي حين وضعت هذه الفرضية .

أما هذه الأسس فتحصر في أربعة هي :

- ١ - الأساس الصوتي .
- ٢ - الأساس الكمي .
- ٣ - الأساس التقليبي .
- ٤ - الأساس المذري .

وبحسب مقومات النظرية عند المحدثين يجب أن تكون هذه الأسس قادرة على تفسير النظام المعجمي تفسيراً كلياً مطروداً . ومتناهياً للغة العربية ، ويتسم

التفسير بالبساطة وإمكانية التحقق من كل ذلك .

و قبل أن نعرض لكل أساس من هذه الأسس بالتفصيل ، و نتعرف من خلال العرض على مدى انطباق ذلك على ما طرحة الخليل . فإن مسألة الأصالة في نظرية الخليل قضية قد شغلت الدراسين قديماً و حديثاً و لابد أن عمل الخليل الفذ في مجال المعجم قد لفت أنظار هؤلاء الباحثين ، فوجدوا في محاولة الخليل نقلة منهجية في مجال البحث المعجمي ، جعلت من العرب بسبب هذا العطاء الخليلي الذي يشبه الطفرة العلمية أمة من الأمم العظيمة في هذا الميدان . الأمر الذي دفع باحثاً غريباً مثل Haywood إلى القول بأن العرب : « يحتلون مكان الصدارة في مجال المعجم سواء في الزمان أم المكان وبالنسبة للعالم القديم أم الحديث وبالنسبة للشرق أم العرب » (١) .

ولا أريد لهذا البحث أن يتوجه هذه الوجهة من المعاكس أو ينبرى لتأكيد أن عمل الخليل خاصة والإنتاج العربي في مجال المعجم عامة أصيل ، ويتصدى بالدحض والتنفيذ لدعوى من قال إنه تأثر بالهند أو الإغريق في هذا المجال (٢) . فاقصررنا حاولوا ذلك . وإنما هذا البحث سيركز على إظهار أن عمل الخليل في مجال المعجم نظرية مكتملة بهذا المفهوم العلمي . وسيتناول بالتحليل نصوص الخليل لبيان هذا ، أما الأصالة وعدم الأصالة فتلك قضية خارجة عن اهتمام هذا البحث . أو يرى البحث أن الانشغال بها هو نوع من المحساسية التي تشغله بالبعض فليس يعيب الخليل في شيء أن يكون أفاد في بعض جوانب نظريته من هنا أو هناك ، فهذا عندي ليس سببه أو تهمة يجب التصدي لها ودحضها لنخلص في النهاية إلى اعتبار عمل الخليل إبداعاً عربياً محضاً ، إن هذا ليس تفكيراً علمياً ، ولا

١ - انظر B.2 Arabic lexicography .

٢ - انظر في ذلك تاريخ آداب اللغة العربية ١٢/٢ ، و تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية ص ١١٤ وما بعدها . و انظر كذلك البحث اللغوي عند العرب ص ٣٣٩ وما بعدها ، والبحث اللغوي عند الهند ص ١٣٧ وما بعدها .

يجب أن يكون غاية ينفق الحادون جهداً أىًّ جهد لإثباتها أو نفيها ، وأكاد أقول إن إثباتها ربما يضيّف للتفكير العربي فضلاً لا يقل عن فضل نفيها ، لأنه يؤكد أن العرب كانوا عنصراً فاعلاً في صرح البناء المعرفي للإنسان وحلقة من حلقات الطياء المؤثر في حضارته على امتداد التاريخ البشري ، شأنهم في ذلك شأن كل الأمم العظيمة التي تسهم بتصنيب في تشييد صرح الحضارة الإنسانية ، وهذا مالا تستفيده من اعتبار عمل الخليل مجرد ومضه غير مسبوقة وغير متبوعة ، وليس ذات اتصال بتراث البشرية العلمي . فإن كانت محاولة الخليل إبداعاً تتظريأ من بنات أفكاره فهو عالم عظيم ظهر في أمة عظيمة ولا غرابة أن يدع العظاماء من العلماء في أى زمان وأى مكان ، وإن يكن استفاد من بعض الأطر المعرفية في تأسيس نظرية من هنا أو هناك ثم طورها ووضع للغربية نظريته التي تحمل في طياتها كل ملامح النظرية العلمية المتقدمة والملازمة للغة التي لها وضعت ، فهذا الصنف في من الفضل ما يجعل من الخليل أحد العلماء الأفذاذ الذين أسهموا بتصنيب في بناء النظرية اللغوية عامة والمعجمية خاصة على مدى التاريخ الإنساني لهذه النظرية أو تلك ، ففي النظرية التحويلية التوليدية – على سبيل المثال – عناصر بعضها عقل يرجع إلى الإغريق وإلى همبولت الألماني وبعضها وصفى يرجع إلى الهندود ودى سوسيير السويسرى وبعضها رياضى وبعضها نفسي وبعضها منطقي ، فهل فكر أحد في التصدى لشومسكي وإرجاع كل عنصر من عناصر نظريته إلى أصلها . وقتها لن يتبقى لصاحب النظرية إلا تهمة السرقة العلمية . وهو عكس ما يحظى به الرجل في الدنيا كلها من اعتباره واحداً من ألف رجل صنعوا حضارة القرن العشرين .

الذى يستحق البحث إثباتاً أو نفيأً أين نحن العرب المعاصرین من ركب الحضارة المعاصرة ، وما نصيّبنا الذي نسهم به إن إبداعاً وإن مشاركة في تشييد هذا الصرح الشامخ الذي تسهم فيه أم كثيرة لسنا بحال أقل من كثيّرين من المشاركون قدرة على الطياء ؟ إن تكن تهمة بالقصیر لا صواب فيها فما أحوجنا

لن يدحضها حتى نستعيد ثقتنا في أنفسنا وفي قدرتنا على العطاء الخلاق . وإن تكون سبة حقيقة فما أحوجنا لمن يحرك فينا النخوة لنsem بالدور الذي علينا أن نقوم به لنكون صناع حضارة كغيرنا ، وتبعد الأولى التي قام بها أوائلنا العظام ومنهم الخليل بالثانية التي هي مسئولية المتقاعسين من أسلافهم .

أعود مرة أخرى إلى مفهوم النظرية اللغوية ، وإلى مدى انتطاب هذا المفهوم على عمل الخليل في مجال المعجم ، فأجد أن بقية فصول هذا البحث ستتولى الإجابة عن هذا . كما ستبين لنا كذلك أنها مجموعة عناصر فريدة في تشكيل نظريته ، فلم نقرأ أن أحداً أقام نظرية في المعجم على أساس صوتي يتكئ على نظرة كمية ، ويوظف خلال ذلك المنهج الرياضي في تصور مادة المعجم ، ويجعل من الجذر محوراً لربط المادة المعجمية ، إنها عناصر كما سترى شديدة التداخل والتكامل ، وفيها بصر بجوانب خاصة بالعربية ، وسترى مدى الاتساق والشمولية والبساطة في كل عنصر على حدة ، وفي مجموعة العناصر حين تداخل وتكامل أيضاً .

الفصل الثاني
الأساس الصوتي



الأساس الصوتى

١ - كان الأساس الصوتى ركيزة منهجية صلبة : في نظرية الخليل المعجمية ، وجاء كل حديثه عن أصوات العربية ومخارجها وصفاتها في معرض حديثه عن بنية المعجم العربي ، وميلع علمي أنه أول من وظفَ الدرس الصوتى بوصفه أول مستوى من مستويات التحليل اللغوى فى خدمة مستوى تالى من مستويات هذا التحليل ، وهو أمراتهم الدارسون القدماء - أو جلهم بعدم الالتفات إليه أو الاستفادة منه ، وعد تأخيرهم لمباحث الأصوات فى نهاية مؤلفاتهم نوعاً من الإهمال أو عدم الوعى بقيمة الدرس الصوتى فى خدمة مستويات التحليل الأخرى كالصرف والنحو والدلالة^(١) .

ومن خلال الأساس الصوتى سيتبين لنا أن الرجل لم يقدم في كتاب العين دراسة صوتية خالصة ، وإنما كان يعالج إشكالية تفسير نظام المعجم العربي ، ومحاولة فهم أسرار البنية المعجمية للكلمة العربية أو التعرف على خصائصها التركيبية أو نسيجها الصوتى ، ونظرًا لأن الكلمة في المعجم بوصفه نظاماً هي الكلمة المنطقية ، وهي تترکب من وحدات صوتية أو ما أطلق عليه الخليل مصطلح (حروف)^(٢) ، ولم يكن يعني غير فونيمات اللغة ، ولم يكن يقصد تبعًا لذلك ما يسمى بالرموز الكتابية graphs أو letters ؛ لأنه لا يفكر في صناعة معجم كما سبق الإشارة إلى ذلك في الفصل السابق . ولما كان يفكر في المعجم كنظام ووحدته الكلمة المنطقية وهي تترکب من أصوات اتجه الرجل إلى أصوات اللغة إذ هي اللبنات التي منها تتشكل الكلمة ، هذا الاختيار إذن - أقصد الاختيار الصوتى - فرضته طبيعة الدراسة المعجمية التي هو بصددها ، ولم يكن له أن يأخذ

١ - انظر على سبيل المثال دراسات في علم اللغة ق ٢ ص ٢٢ / وما بعدها .

٢ - وهكذا سار خالقو الخليل من التحاة على هذا الاصطلاح انظر دروس في علم أصوات العربية ص ١٤٨ .

في تصنيف المعجمي بالأساسين الآخرين اللذين كانوا مطروحين أمامه لعملية التصنيف وهم الأساس الألفبائي ، والأساس الأبجدي .

فهو لم يتوجه للترتيب **الألفبائي** *Alphabetical arrangement* الذي وضعه نصر بن عاصم أب ت ث الخ الذي ظن الباحثون أنه كان أولى بالاتباع لسهولته ويسره لأن هذا الترتيب قائم على أساس وصف الرموز الكتابية ، بدليل أنه ترتيب قائم على أساس المجموعات المشابهة في الرسم الكتابي كما هو معروف وكما يظهر مما يلى : ب ت ث / ج ح خ / ذ رز / س ش / ص ض / ط ظ / ع غ / ف ق / الخ وهي كما سبق القول حروف كتابية *graphs* وليس وحدات صوتية *phones* والأولى كما تعرف صورة والثانية هي الأصل ، والأولى قاصرة في أغلب الأحوال عن تمثيل الثانية ، ولا يخفى أن رجلا يسعى إلى التعرف على الأعضاء التي يتركب منها جسم ما عليه أن يذهب إلى هذا الجسد ويشرحه ، ولو جأ إلى صورة الجسم لما أدرك شيئاً ذا قيمة . وهذا هو حال الخليل حين اتجه إلى الترتيب الصوتي انطلاقاً من الغاية التي يسعى إليها وهي دراسة خصائص الكلمة المنطقية في النظام المعجمي ، وليس الأمر أمر سهولة وصعوبة من جانب كما أنه ليس في حاجة إلى الإحالة إلى تبريز الخليل في الأصوات ، أو اهتمامه الشخصي بها قياساً على اهتمامه وإبداعه في الموسيقى والعروض من جانب آخر لأنه توجهه إلى النظام الصوتي كان لأسباب موضوعية فرضتها طبيعة الدراسة المعجمية التي يتصدى لها ، وإحالة الأمر إلى شخصية الخليل التي تتمتع بالحسنة الصوتية يجعل اختيار النهج الصوتي راجعاً لسبب شخصي ذاتي لا موضوعي وهو خلاف الحقيقة ، ولكن كانت حاسته الصوتية قد ساعده على تبيان الطريق التي كان عليه أن يسلكها فإن هذا الأمر قد أعطاه فقط ميزة امتلاك أدوات المعالجة وساعدته على تحقيق أفضل النتائج العلمية وهذا أمر طبيعي حين يأخذ العالم المدرب الذي لديه الحسنة الصوتية المطلوبة والدرية الكافية بالمنهج العلمي الدقيق المناسب لموضوع بحثه ، والذي تفرضه طبيعة الموضوع الذي يتصدى له .

الترتيب الألفبائي إذن ليس هو الترتيب الملائم لموضوع البحث وهو خصائص الكلمة المنطقية كما أن الترتيب الأبجدي السادس القديم : أبجد هوز حطى كلمن .. الخ هو الآخر ترتيب لرموز كتابية ابتدعها الفينيقيون وطوروها عن نظام الكتابة التصويرية الهمروغليفية - على أشهر الآراء - واختصروا الثنين وعشرين رمزاً كتابياً لاثنتين وعشرين صورة ، بدءاً بألف وتعنى الثور في الفينيقية أو ألفا في اليونانية أو ألف في العربية ثم بيت وتعنى (بيت) في الفينيقية وهي فيتا اليونانية أو الباء العربية ثم جميل وتعنى (جمل) في الفينيقية وهي جملة اليونانية أو (جيم) العربية ... الخ هذه الأبجدية (١) .

وكما لم يجد الخليل في الألفبائية العربية سبباً موضوعياً ليتخذها أساساً للتصنيف لأنها كما سبق القول مجرد رموز كتابية تمثل الكلمة الصامدة في القاموس ، ولا تصلح لتمثيل الكلمة المنطقية في النظام المعجمي ، نستطيع القول إنه لم يأخذ بالأبجدية السامية لنفس السبب .

١ - اللجوء إلى جهاز النطق لحصر الوحدات الصوتية :

إن الجهاز المسمى تمازاًً جهاز النطق هو الآلة التي تصدر أصوات الكلام ، وأى صوت يخرج عن غير هذا الجهاز لا يدخل فيما يسميه اللغويون بالصوت اللغوي . إن رجوع الخليل إلى مصدر إنتاج الصوت اللغوي هو إدراك مبكر لطبيعة هذا الصوت ، كما أن الالتفات إلى بداية إخراج الصوت اللغوي ونهايته في هذا الجهاز تعكس ملحةً منهجاً في فكر الخليل اللغوي وأعني به الشمولية في النظرة فهو كما سنرى في هذا البحث - بل وفي كل أعمال الخليل العلمية تقريراً - يأخذ بهذه الآلية في التفكير فإذا كان عليه أن يحصر كل الأصوات فيمكنه أن يتبع ذلك من أعمق الأصوات مخرجاً إلى آخرها مخرجاً وقها لن يفوته صوت واحد ، وهذا

١ - انظر في هذا تاريخ الأدب ص ٥٤ ، ٥٥ والفلسفة اللغوية ص ١٦٥ ، واللغة (لفندريس) ص ٣٩٧ وما بعدها وانظر تاريخ علم اللغة منذ نشأته حتى القرن العشرين ص ٧١ .

ما فعله الخليل الذى قام فضلاً عن ذلك بوصف الأصوات بعد أن وضعها فى مجموعات بحسب الاتفاق فى المخرج ، وهو عمل سيكرون له قيمة فيما بعد عند تخليل الفظواهر اللغوية والتعرف على السلسل الصوتية الأكثر دوراناً والأقل ترداً ، وكذلك الأصوات التى يمكن أن تتبادل فيما بينها فى بنية الكلمة كحروف العلة أو أصوات الحلق الخ ... وليس ثمة اعتبار موضوعى لترتيب الأصوات يماثل فى الدقة الترتيب المخرجى ، وإن يكن المحدثون يدعون بآخر مخرج وهو الشفة ، ويستهون بأول مخرج أو أعمق مخرج وهو المخجرة وهذا عكس ما فعله الخليل وتلاميذه كسيبوه ومن جاعوا بعده كابن جنى فليس ذلك بعيب فى صنيع الخليل ومن لف لفه ، إذ لا ميزة لأحد الأسلوبين فى وصف الأصوات على الآخر ، غالباً فيما واحدة ، وهى متحققة بأىهما بدأت ، والعبرة فى النهاية بذلك التحديد للمخرج وسلامة التوصيف لطبيعة الصوت .

نصح إذن الخليل فى اللجوء إلى الترتيب الصوتى ، ووفق كذلك فى الرجوع إلى جهاز النطق لحصر أصوات اللغة كنحصر من العناصر المنهجية التى تعينه على تحقيق مبدأ الكلية أو الشمولية فى الوصف وهو أمر أدركه بعض اللغويين . فهذا الأزهرى يعلق على فهم بعض العلماء فهـماً غير دقيق لقول الخليل « هذا ما ألقه الخليل بن أحمد من حرف أب ت ث التى عليها مدار كلام العرب وألفاظها ، ولا يخرج شئ منها عنها » حيث فهم البشـتى صاحب التكملة كلام الخليل فهـماً خطأً فقال : « نقض الذى قاله الخليل ما أودعناه كتابنا هذا أصلـاً ، لأن كتابنا يشتمل على ضعـى كتاب الخليل ويزـيد ، وسترى تحقيق ذلك إذا حـرت جـملـته ، وبحـثـت عن كـنهـه » فيعلـق الأـزـهـرى عـلـى ذـلـك قـائـلاً : « ولـما قـرـأـتـ هذا الفـصـلـ من كـتابـ البـشـتـىـ استـدـلـلـتـ بـهـ عـلـىـ غـفـلـتـهـ وـقـلـهـ فـطـتـهـ ، وـضـعـفـ فـهـمـهـ ، وـاشـتـفـتـ أـنـهـ لمـ يـفـهـمـ عـنـ خـلـيلـ ماـ أـرـادـهـ ، وـلـمـ يـفـعـلـنـ لـلـذـىـ قـصـدـهـ ، إـنـاـ أـرـادـ خـلـيلـ رـحـمـهـ اللـهـ أـنـ حـرـوفـ أـبـ تـ عـلـىـهـ مـدارـ كـلـامـ الـعـرـبـ ، وـأـنـهـ لـاـ يـخـرـجـ شـئـ مـنـهاـ عـنـهاـ ، فـأـرـادـ بـمـاـ أـلـفـ مـنـهاـ ، مـعـرـفـةـ جـمـيعـ مـاـ يـتـفـرـعـ مـنـهاـ إـلـىـ آـخـرـهـ ، وـلـمـ يـرـدـ أـنـهـ حـصـلـ جـمـيعـ

ما لفظوا به من الألفاظ على اختلافها ، ولكنه أراد أن ما أنس ورسم بهذه الحروف وما بين من وجوه ثانيةها وثلاثتها ورباعيها وخمساتها في سالمها ومحملها على ما شرح وجوهها أولاً فأول ، حتى انتهت الحروف إلى آخرها ، يعرف به جميع ما هو من ألفاظهم إذا تُبع ، لا أنه تبعه كله فحصل له ، أو استوفاه فاستوعبه من غير أن فاته من ألفاظهم لفظه ، ومن معانيهم للفظ الواحد معنى ، ولا يجوز أن يخفى على الخليل مع ذكاء فطنته وثقوب فهمه أن رجلاً واحداً ليس ببني يوحي إلى يحيط علمه بجميع لغات العرب وألفاظها على كثرتها حتى لا يفوتها منها شيء ، وكان الخليل أعقل من أن يظن هذا أو يقدر ، وإنما معنى جماع كلامه ما بيته ففهمه ولا تغلط عليه » (١) ا.هـ.

ويعيني من أمر النص السابق هذا الفهم الدقيق الذي وعاه الأزهرى من فلسفة طريقة الخليل وأن قصده بالتجوء إلى هذه الطريقة النظرية الشاملة لحصر كلمات اللغة من خلال حصر الوحدات الصوتية التي منها تتشكل ، وأن أية كلمة في لغة العرب لا تخرج عن أن تكون ملولة من هذه الوحدات التي أحصاها ووصفها . أما عَد الكلمات المستعملة وجمعها في معجم تلك مهمة صناع المعاجم وهم يتفاوتون في قدرتهم على الحصر وجمع الكلمات ، إن الخليل يشير إلى آلية منهجية نظرية تحصر إمكانيات توليد كلمات اللغة من أصوات بعضها لا تخرج الكلمة العربية عنها ، والبشتى يتكلم عن كم الكلمات التي جمعها وضمنها كتابه .. ومن هذا النص نفهم صراحة أن الخليل لم يكن يفكر في جمع كلمات اللغة لفظة لفظة ووضعها في قاموس ، بل كان همه الأول فهم أسرار المعجم وفك شفرته اللغوية كما سبق القول .

١ - ٣ البدء بالعين والتسمية به :

كما لجأ الخليل للترتيب الصوتى لأسباب موضوعية اقتضتها طبيعة

الدراسة ، نجد الخليل يفاجئنا بأمر آخر لم يكن - على ما يبدو - في حسبان كثيرين وهو جعله بداية الأصوات حرف العين . والأمر لم يكن تخميناً بلا كان نتيجة تجربة علمية قام بها وتعرف من خلالها على طبيعة الأصوات ، وانتهى إلى اختيار العين ، ينقل لنا الليث ذلك بعبارة واضحة لا غموض فيها « فدبر ونظر إلى الحروف كلها وذاقها فوجد مخرج الكلام كله من الحلق ، فصيير أولها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق ، وإنما كان ذواقه إياها أنه كان يفتح فاه بالألف ثم يظهر الحرف . نحو اب ، ات ، اخ ، اع ، اغ فوجد العين أدخل الحروف في الحلق ، فجعلها أول الكتاب ، ثم ما قرب منها فالأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو الميم ^(١) » اهـ من النص السابق نفهم الأمور التالية :

١ - ٣ - ١ : أن اختياره للعين إنما جاء عن طريق الاختبار والتجربة ، وهو أمر يحسب لصالح الخليل في اعتماده على التجربة ، ويؤكد أصالة المحاولة الخليلية فهو يتحمل بناء على ذلك صواب النتيجة أو عدم ذلك .

١ - ٣ - ٢ : أنه كان يلجأ للتعرف على خاصية الصوت إلى وضع ألف كوسبيط يعين على إحداث نوع من الوضوح السمعي *Senority* للصوت الذي ينونقه وليس لنا اليوم أن نقول إن هذا الصنيع غير دقيق اعتماداً على وسائلنا الحديثة ، بل تظل المحاولة الشخصية للذوق الصوت مؤثراً للسبق العلمي في مجال الدرس الصوتي التجربى ، ويكاد الإجراء الخليلي أن يطابق نتائج الكيمو جراف والأوسيلو جراف والسبكتو جراف إلا في عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة من الأصوات الأرجح أن يرجع الخلاف بين الدرس الحديث وما قاله القدماء إلى طبيعة الأصوات التي وصفها القدماء ونصفها نحن اليوم ، فربما كان القدماء يصفون أصواتاً تنطق بطريقة أخرى غير نطقنا لها اليوم وبخاصية الضباد والظباء والقاف والجيم .

١ - ٣ - أنه وجد العين أعمق الأصوات ثم جاء بعدها بالأرقع فالأرفع ، ويبدو من ذلك أن قوة الوضوح السمعي في نسيج الكلمة العربية كانت عاملاً مرجحاً بين مجموعة الأصوات التي تنتهي إلى مخرج واحد . ولم يكن الترتيب مرجحاً خالصاً . أى لم يكن قائماً على السبق الظريجي وحده . بدليل أنه لم يبدأ بالهمزة وهي عنده أسبق مخرجًا كما يظهر بوضوح من النصوص التالية :

- قال ابن كسيان : « سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحدف ، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة لا في اسم ولا في فعل إلا زائدة ، أو مبدلة ، ولا بالهاء لأنها مهوسنة خفية لا صوت لها فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والباء فوجدت العين أنصع من الحرفين فابتدأت بها ليكون أحسن في التأليف ^(١) » .

- وينقل الأزهرى عن الخليل قوله « والموicus فى الحروف المحتلة ، وهى أربعة أحرف الهمزة والألف اللينة والياء والواو ، فاما الهمزة فلا هجاء لها ، إنما تكتب مرة ألفاً ومرة ياء ، فاما الألف اللينة فلا صرف لها ، إنما هي جرس مدة يبعد فتحة ، فإذا وقعت عليها صرفة الحركات ضفت عن احتمالها ، واستنامت إلى الهمزة أو الياء أو الواو ، كقولك عصايه وعصائب كاهل وكواهل ، سعلاة وتلث سعليات فيمن يجمع بالباء ، فالهمزة التي في المصائب هي الألف التي في العصاية ، والواو التي في الكواهل هي الألف التي في الكاهل جاءت خلقتا منها والياء التي في السعليات خلف من الألف التي في السعلاة ، ونحو ذلك كثير ، فالألف اللينة هي أضعف الحروف المحتلة والهمزة أقواها متنا ومخرجها من أقصى الحلق من عند العين ^(٢) » اه .

- ويجلو الخليل مخرج الهمزة أخيراً فيقول : « وأما الهمزة فمخرجها من أقصى

١- المزهر : ١ / ٩٠ .

٢- هـ : ١ / ٥١ .

الخلق مهتوة ، مضغوطة فإذا رفه عنها لانت فصارت الياء والواو والألف من غير طريق الحروف الصحاح » ^(١) .

من النصوص السابقة نفهم ما يلى :

ـ أن الهمزة عنده هي أول الحروف مخرجأً ، فهي من أقصى الخلق ، في الحيز الأول وكذلك الهاء أما العين ففي الحيز الثاني ، مما دعاه إلى الاعتذار عن عدم البدء بها .

ـ أنه لا يقوم بالترتيب الخروجي للأصوات كإجزاء وصفى هو هدف في حد ذاته بل إنه يقوم به توطئه لفهم خصائص التركيب الصوتي للكلمة ، الأمر الذي جعله في ضوء هذا الهدف يضع في اعتباره أي الأصوات أكثر دوراناً ، وأكثرها ثباتاً واستقراراً في بنية الكلمة ، كما حداه أن يطوع إجراءه الصوتي لخدمة غايتها المعجمية .

ـ في ضوء ما سبق لا غرابة أن يتخلل عن الهمزة والهاء اللتين تسربان العين لأسباب موضوعية تفرضها طبيعة المعالجة ، وهي أن الهمزة أقل ثباتاً في بنية الكلمة وأقل وضوحاً من الناحية السمعية « فهي مهتوة مضغوطه » وأكثر تغيراً « فإذا رفه عنها لانت فصارت الياء والواو والألف عن غير طريق الحروف الصحاح » هذه طبيعتها في نسيخ الكلمة حين تسهل تصير في ذئب (ذئب) وفي أو من (أو من) وفي رأس (رأس) ، فالقراة بين هذه الأصوات في تشكيل الكلمة معجمياً واضحة وإمكانية انقلاب أحدها إلى الآخرة واضحة ، فضلاً عن أن نسبة تردد هذه المجموعة الصوتية في الكلمة العربية من أقل النسب .

ففي الدراسة التي قام بها الدكتور على حلمي موسى لمنور معجمي الصحاح واللسان نجد أن نسبة تردد حروف العلة والهمزة في ذيل القائمة كما يظهر من المقارنة التالية مثلاً :

جلور اللسان (٢)		جلور الصحاح (١)		الصوت
نسبة التردد %	عدد التردد	نسبة التردد %	عدد التردد	
٧,٨٣٣	٢٤٠٨	٨,٢٨٧	١٤٧٠	ر
٥,١٢٣	١٥٧٥	٥,١٠٢	٩٠٥	ع
٢,٧٩٨	٨٦٠	٣,٤٩٥	٦٢٠	و
٢,٤٤٠	٧٥٠	٢,٨٩٢	٥١٣	ء
١,٥١٦	٤٨٠	١,٦٧٤	٢٩٧	ى
١,٧٣٤	٥٣٣	٢,٤٠٢	٤٢٦	ا

من المدخل السابق يبين أن وضع العين في صدر المعجم جاء من ملاحظة أنها أكثر حروف المقدمة دوراناً في الكلمة العربية ، وأنصعها من حيث قوة الوضوح السمعي بالقياس إلى الهمزة والهاء ، كما أن وضع حروف العلة في مجموعة واحدة في آخر المعجم جاء كذلك تعبيراً عن نفس الخاصية التي جعلت العين في المقدمة ، فهي أقل الأصوات ترددًا في بنية الكلمة ، وأضيقها من حيث قوة الثبات النسبي الراجع إلى تقليلها فيما بينها . وهو ما يؤكد ما أسلفت الإشارة إليه من أن الخليل لم يقدم هذا الترتيب المخرجى بوصفه ترتيباً صوتياً خالصاً بل هو ترتيب صوتي في سياق خاص هو التعرف على نسيج الكلمة الصوتى . وهذا ما يفسر المعلومات التي تبدو نشاذةً في هذا المقام في حديث الخليل عن الصحة والاعتلال ، وحديثه عن النصاعة وحديثه عن الأرفع فالأرفع ، وحديثه عن عليه انصرافه عن الهمزة وهى في المقدمة وكذلك الهاء وذلك لكونها مهتوة مضغوطه ، ولا يرفع هذا الفموض وذلك الاضطراب الظاهرى إلا إعادة فهم الغاية التي من أجلها طرح هذه المعلومات الصوتية الصرفية ، إذ هو يقدمها خدمة لهدفه الأساسي في تفسير البنية المعجمية .

١ - إحصاءات الصحاح : ص ١٠٩ .

٢ - إحصاءات اللسان : ص ٨٣ .

ويبدو أن ثمة اعتبارات أخرى يتعين بها حرف العين أحسها الخليل وأحسها وأسجلها كذلك بوصفها انطباعات شخصية من ذلك :

– أن العين التي اختارها الخليل صدرًا لأبجدية العربية هي نفسها صدر للعلم الذي أطلق على الأمة صاحبة هذه اللغة وأقصد بذلك كلمة عرب ، ولا أحسب أن بعض ما انتهى إليه الدرس الإحصائي فيما يخص هذه الكلمة كان يغيب عن هذا الحس الخليلي ، فأكثر الحروف مجيئًا بعد العين في العربية هو الراء ، كما أن أكثر الحروف مجيئًا في العربية بعد حرف الراء هو الباء ^(١) . فهل هذا كان يغيب عن إحساس الخليل ؟ .

– أن كلمة عرب استخدمت في الدلالة التي أشار إليها الخليل فيما يتصل بحرف العين ، وأعني مفهوم الإباهة والوضوح .

– أن اسم هذا الحرف وهو كلمة (عين) هو من أكثر الألفاظ إفادة للمعنى أو إفاداة لمعان عدة كما هو معروف مثل : الدلالة على الباصرة ، وعين الشمس وعين الركبة ، والمحاسوس ، وعين الماء ، وغيرها ولا يغيب عن البال أن الدلالة الأخيرة (عين الماء) لصيغة بحياة العربي ابن الصحراء ولابد أن تكون لصيغة وذات خصوصية في لغته . ولا أعرف شيئاً أكثر قرباً إلى نفس العربي وعقله من لغته . وللعين الصدر من أصوات هذه اللغة . ولابد أن الخليل أعمل فكرة في هذه الوجوه جميعاً حين اختيار العين ، ولعل من اللافت للنظر أن عبارة أعمل فكره لم ترد إلا في هذا الموضوع أقصد اختيار العين صدرًا لترتيبه الصوتي .

١ – ٤ : موقف الخليل من الألف :

إن موقف الخليل من الألف في حاجة إلى فضل نظر ، وقدر من التدبر ، فعبارة الخليل تعني أنه كان من الممكن أن يبدأ بالألف ، ولكنه انصرف عنه لأنه

١ – انظر إحصاءات الصحاح ص ٢٤١ و ص ٢٩ .

حرف معتل لا يأتى فى بداية الاسم والفعل إلا زائداً . وهو ما يمكن أن يفيد ضمناً أنه تصور الألف على أنه صوت صامت Consonant . فما هي حقيقة هذا الصوت عند الخليل . هل هو حركة طويلة Vowel أم صوت صامت ؟ لا أظن أن أحداً أحق أن يجعلنا هذا الأمر من الخليل نفسه . فماذا قال عن هذا الصوت ؟ .

قال الليث ؛ قال الخليل ؛ في العربية تسعة وعشرون حرفأً : منها خمسة وعشرون حرفأً صحاحاً لها أحياز ومدارج ، وأربعة أحرف جوف ، وهي الواو والباء والألف اللينة والهمزة ، وسميت جوفاً لأنها تخرج من الحوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان ، ولا من مدارج الحلق ، ولا من مدارج اللهاة ، إنما هي هاوية في الهواء ، فلم يكن لها حيز تناسب إليه إلا الحوف ، وكان يقول كثيراً : الألف اللينة والواو والباء هواية أي أنها في الهواء ^(١) .

وقال الأزهري : وروى غير المظفر عن الخليل بن أحمد أنه قال : الحروف التي بنى منها كلام العرب ثمانية وعشرون حرفأً ، لكل حرف منها صرف وجرس ، أما الجرس فهو فهم الصوت في سكون الحرف ، وأما الصرف فهو حركة الحرف ^(٢) .

من التصينين السابقين يتبع لنا ما يلى :

١ - ٤ - ١ : أن هناك خمسة وعشرين صوتاً صامتاً حسب ترتيب الخليل تبدأ بالعين وتنتهي باليم . لا خلاف في كونها صامتة وهي بحسب الترتيب الألقيائي الأصوات من الباء حتى الهاء وهي : ب ت ث ج ح خ ذ ر ز م ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه .

١ - ٤ - ٢ : ثمة صوتان - هما الواو والباء يعدان صامين في مثل قول

١ - انظر ع : ١ ، ٥٧ ، ٥٧ : ١ . ٤٨ .

٢ - انظر ه : ١ . ٥٠ / ١ .

وصوم ، عينَ وَيْت . فيكون مجموع الصوات بهذه الصوتين سبعة وعشرين صامتاً .

١ - ٤ - ٣ : يبقى من جملة الأصوات التسعة والعشرين صوتان عما الهمزة والألف وما في حقيقة الأمر ليسا سوى صوت واحد ، غير أن ثمة خلطًا في التسمية هو الذي أدى إلى كل هذا الاضطراب في فهم كلام الخليل . فمن المعروف أن لفظ ألف كان يطلق اسمًا على الصوت المعروف بالهمزة أو الوقفة الخجورية Glotal stop ، وأن كلمة همزة كاسم على هذا الصوت هي اصطلاح حديث نسبياً ، وثمة أدلة كثيرة على هذا لا مجال لسردها ^(١) .

والخليل في نصيه السابق في العربية تسعه وعشرون ، حين ذكر الألف كان يقصد شكلاً من أشكال الهمزة ، ولم يكن يقصد الألف التي هي حرف مد في مثل قال وباع وهو يدرك ذلك تماماً ونراه حين يقصد الأخيرة يعندها بالفظ لين فيقول ألف اللين أو الألف اللينة . أما إذا أراد بالألف ما يغيب الهمزة فيقول : ألف فقط دون أى نعوت وقد أدرك الخليل إمكانية إساعة فهم مصطلح ألف فقام بوضع رأس عين (ء) على الألف حين يقصد به الهمزة ، وجرد صورة الألف التي هي للمد واللين من هذه العلامة . ومعلوم أن رأس العين هي الرمز الكتائى للهمزة أو الوقفة الخجورية كما هو معروف .

ما سبق يتبيّن لنا أن الكلمتين ألف وهمزة في نص الخليل واقعتان على صوت واحد هو المعروف بالوقفة الخجورية ، ويكون التعارض الظاهري بين النص السابق في العربية تسعه وعشرون والنص اللاحق (المعروف التي بني منها كلام العرب ثمانية وعشرون) قد زال . وإنما فصل في نص تسعه وعشرين ، لأنه إنما يرمى بالألف شكلاً من أشكال الهمزة وهي الهمزة المسهلة في مثل راس ، وذيب ،

١ - انظر في تفصيل ذلك سر صناعة الاعراب ٤٧ / ١ ، و تاريخ الأدب ص ٢٨ ، و دراسات في علم اللغة ٤٩ / ١ وما يمدها .

ويرمى بمصطلح همزة الهمزة المحققة في مثل رأس وذئب . هذا التداخل بين الهمزة والألف هو الذي أدى إلى هذا الفصل وحين ينفخنا عندها صوتاً واحداً فيقول : « والحروف الشمانية والعشرون على نحوين : مقتل وصحيح ، فالمتلو منها ثلاثة أحرف : الهمزة والياء والواو . قال وصورهن ما ترى (اوى) ، قال واعتلالها تغيرها من حال إلى حال ، ودخولها بعضها على بعض واستخلافها بعضها من بعض ، وقال وسائر الحرروف صحاح لا تغير (١) » .

فهو هنا طرح مصطلح ألف ورجع إلى المصطلح الأصلي (٢) لصوت الوقفة الخنجرية وأعني به كلمة (همزة) وحديثه عن صنفى الصوات ، وكونها مجموعة صحيحة لا تغير في بنية الكلمة ، ومجموعة تغير تأكيد آخر على أنه لا يقدم كلامه الصوتي هنا الا لغاية معينة وهي معرفة طبيعة هذه الأصوات وأحوالها في بنية الكلمة معجمياً ، وليس من قبيل اللغو أو الخلط وهو في معرض الحديث عن خصائص الأصوات في تشكيل الكلمة أن يقول : إن بعض هذه الأصوات ثابت وبعضها يتغير ، فالحديث الصوتي ليس صوتياً خالصاً ، وليس مقصوداً لذاته كما سبق القول مراراً .

وإذا كانت طبيعة الهمزة أو صورتها المسهلة التي كان يطلق عليها ألف فقط هي عدم الثبات والاستقرار في تشكيل الكلمة ، فقد نحاها ووضعتها في مكانتها من حيث الأثر والدوران في بنية الكلمة أعني ضمنها مع نظائرها في نفس المخالصية وأعني الواو والياء وهي مجموعة جاءت كما سبق القول في ذيل ترتيب الخليل ، وأكدت الإحصاءات ذلك كما سبق ، وعليه جاء ترتيب الخليل كما صاغه المغارفي (٣) :

١ - انظر هـ : ١ / ٥٠ .

٢ - أقصد بالأصلي الأساسي الشائع على هذا الصنف المعروف بالوقفة الخنجرية ، ولا أقصد الأصل التاريخي ، ولا فمصطلاح ألف أقدم من مصطلح همزة لا مشاحة .

٣ - انظر المزهر ٨٩ - ٩٠ .

واللام والتون ثم الفاء والباء

واليم والواو والهموز والياء

والهموز هنا هو الهمزة بتصوريتها المختقة والمسهلة (أو الألف) بدون وصف . وعِدَّة الحروف بناء على هذا ثمانية وعشرون . ولا يمكن أن يكون المقصود بالهمزة هنا بحال ألف المد أو ألف اللينة لأن الخليل يقول : إن لكل حرف من الثمانية والعشرين صرفاً والصرف هو حركة الحرف الذي يقبل الحركة هو الصامت أما ألف المد فهي نفسها حركة طويلة كما هو معروف .

وببناء على ما سبق فإن كلمة ألف عند الخليل جاءت بشكليين ودلالتين :

الشكل الأول : ألف : وهي الهمزة المسهلة في مثل راس وذيب ولعل هذا هو ما فهمه ابن جنی حين قال : « أعلم أن الألف التي في أول حروف المعجم هي صورة الهمزة وإنما كتبت الهمزة وأوأ مرة وباء آخرى على مذهب أهل المجاز في التخفيف » انظر سر الصناعة ١ / ٤٦ ، وإلى قريب من هذا أيضاً ذهب أستاذنا د. إبراهيم أنيس في تعليل ذكر سيبويه لكلمة ألف بعد الهمزة فقال : فربما أراد بكلمة ألف تفسير المقصود من كلمة همزة ... ثم يضيف « ولعل ما يستأنس به لهذا التوجيه أن سيبويه ومن جاعوا بعده كانوا يذكرون في موضع آخر نوعاً ثانياً من الألف ويسموه بـألف المد (١) » والصواب أن الخليل سبق بذكر هذه الألف الثانية وسمها ألف اللينة كما سبق القول .

الشكل الثاني : الف لين (أو ألف اللينة) وهي حركة طويلة كما في قام وصام ، ولن يست هذه الألف من الصوات عند الخليل سواء في نص (تسعة وعشرين) أم في نص (ثمانية وعشرين) . وهذا ما عبر عنه ابن جنی قائلاً : « فاما المدة التي في نحو قام وصار وكتاب وحمار فصورتها أيضاً صورة الهمزة المختقة التي في أحمد وإبراهيم وأترجة ، إلا أن هذه الألف (يقصد ألف قام

١ - انظر الأصوات اللغوية ص ١١٥ .

وأخواتها) لا تكون إلا ساكنة ، فصورتها وصورة الهمزة المتحرّكة واحدة ، وإن
اختلف مخرجاهما (١) .

١ - ٥ موقف الخليل من الهاء :

حدث الخليل عن الهاء هو الآخر في حاجة إلى وقفة أخرى لتبين طبيعة هذا
الصوت عنده وتعرف مخرجته كما رأه ، فالنص المشهور عن الخليل وهو نص
العين يضع الهاء في مخرج لاحق أو تال للعين والباء ، كما أن ثمة نصوصاً أخرى
في العين أيضاً يفهم منها صراحة أنه يدرك أن الهاء سابت مخرجياً على العين ،
وثمة نصوص منسوبة للخليل في غير العين تؤكّد هذا ، فما الحقيقة ، ولماذا لم يبدأ
بالباء وتركها كما ترك الهمزة من قبل وببدأ بالعين ؟ لترك الخليل نفسه ومن خلال
النصوص المنسوبة إليه يوضح الأمر و يجعلوه .

أما أشهر النصوص التي تفید أن الهاء تالية للعين والباء قوله في أول المقدمة
« وهذا تأليفه : ع ، ح ، هـ ، خ ، غ ، ق ... (٢) . »

والترتيب السابق هو المعتمد عند جمهرة من تبع الخليل من العلماء كالازهري
في تهذيه وابن سيدة في محكمه (٣) ، وهو الذي شاع عن الخليل حتى فيما رواه
الناظمون لهذا الترتيب من أمثال سلمه بن عبد الله المعاوري حين قال :

يا سائلني عن حروف العين دونكها
فهي رتبة ضمها وزن إحصاء
العين والباء ثم الهاء والباء
والغين والقاف ثم الكاف أكفاء (٤)

ولكن ثمة نصوص أخرى في العين نفسه وفي سواه يفهم منها صراحة أن
الخليل يرى الهاء أسبق من العين مخرجياً كما سبقت الإشارة . ففي العين والتهذيب

١ - انظر سر الصناعة ١ / ٤٨ .

٢ - ع : ١ / ٤٨ ، هـ : ١ / ٤١ .

٣ - المحكم : ١ / ١٦ .

٤ - المزهر : ١ / ٨٩ .

في معرض توزيعه للأصوات على مخارجها مخرجاً مخرجاً قال : « فالعين والباء والباء والباء والغين حلقة لأن مبدأها من الحال (١) » وليس في النص السابق أية إشارة إلى الباء كما هو واضح وهو نص موجود في جميع النسخ التي اعتمد عليها المحققان .

وفي نص آخر يقول : « وأما مخرج العين والباء والباء والباء والغين فالخلق (٢) » وفي هذا النص ذكرت الباء غير أن المحققين أشارا إلى أن الباء سقطت من النسختين (ى) و (ك) وأنهما أضافاها اعتماداً على ورودها في بعض النسخ الأخرى ، وبشىء من التأمل في نص ٥٨ المتفق عليه ، ونص ٥٢ المختلف حوله ، يتبيّن أن نص ٥٨ المتفق على عدم وجود الباء فيه أقرب إلى القبول بدليل وجود بعض النسخ في نص ٥٢ خالية من الباء ، وهو ما يتفق مع النص الأول المتفق عليه .

وفي نص ابن كيسان فيما حكى السيوطي قال : سمعت من يذكر عن الخليل أنه قال : لم أبدأ بالهمزة ؛ لأنها يلحقها النقص والتغيير والحدف ، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة لا في اسم ولا في فعل إلا زائدة أو مبدلة ولا بالباء لأنها مهوسنة خفية لا صوت لها ، فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والباء فوُجِدَت العين أنصب الحرفين فابتُدأَت بها ليكون أحسن في التأليف (٣) .

وهذا النص من الوضوح بحيث يفهم منه صراحة ما يلى :
- أن الهمزة أسبق الأصوات مخرجاً يليها الباء ، وهم معاً من مخرج واحد أو حيز واحد هو الحيز الأول .

- أما العين فتلي الباء في المخرج وأن مخرج العين من الحيز الثاني ويليها الباء .

١- ع : ٥٨ / ١ .

٢- ع : ٥٢ / ١ .

٣- المهر : ٩٠ / ١ .

— أنه لم يبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والخذف ، وأنها مهتوة مضغوطة أي غير واضحة في السمع كما قال ذلك في نص آخر . ولا بالهاء لأنها مهوسنة خفية لا صوت لها أو لهتها وعدم وضوحها السمعي كذلك . وقد عبر عن ذلك بصرامة في أكثر من موضع في العين والتهذيب حين قال « ولو لا هته في الهاء وقال مرة ههه لأثبتت الهاء لقرب مخرج الهاء من الهاء » (١) .

فلا غموض ولا خفاء في كون الخليل يدرك تماماً أن ترتيب الأصوات من حيث السبق الظريجي هو الهمزة يليها الهاء يليها العين فالهاء . وأن تأخيره للهمزة والهاء إنما جاء لأسباب صوتية معجمية معاً ، فهما صوتان ليس لهما الوضوح السمعي الذي للعين وهما كذلك أقل ترددًا ودورنا في نسيج الكلمة من العين أيضاً . وكما أثبتت الدراسات الإحصائية من قبل أن الهمزة أقل ترددًا في بنية الكلمة من العين ، فهـ تثبت نفس الحقيقة إذا ما قورنت الهاء بالعين وإليك ثلاثة الأصوات في مقارنة إحصائية :

إحصاءات اللسان (٢)		إحصاءات الصحاح (٢)		الصوت
النسبة المئوية	مجموع التردد	النسبة المئوية	مجموع التردد	
% ٠,١٢٣	١٥٧٥	% ٠,١٠٢	٩٠٥	ع
% ٢,٤٤٠	٧٥٠	% ٢,٨٩٢	٥١٣	ء
% ٣,٣٧٧	١٠٣٨	% ٣,٣٢٦	٥٩٠	هـ

١- ع : ١ / ٥٧ ، هـ : ١ / ٤٨ ، ويقول أستاذنا الدكتور عبد الله درويش نقلًا عن الخليل : « ولو لا هته في الهاء لأثبتت الهمزة » ولا أدرى من أين جاء بهذه النص انظر الماجمـ العربية ص ٧٥ .

٢- إحصاءات الصحاح جدول ٣٠ ص ١٠٩ .

٣- إحصاء اللسان جدول ٢٥ ص ٨٣ .

إلى جانب ما سبق عرضه عن الأساس الصوتي كمنصر منهجي في نظرتيه ، فإن جوانب هامة سوف تظهر لهذا الأساس مبنية في تضاعيف عرض الأساس الأخرى وبشكل يعكس تداخله الأساس وتكاملها .

الخليل والمحدثون :

لقد تناول عدد من الدراسين المحدثين جهد الخليل في كتابه العين وبخاصة الجانب الصوتي بالنقد الذي يصل إلى حد الاتهام بالعجز أو عدم القدرة على التعبير عن أفكاره أو الخطأ الصراح ، كما سلبت كثير من أفكار الخليل الأصلية والرايدة ونسبت لنفسه ، وهو أمر يعلمه البحث هنا لا من قبيل الدقائق عن شخص الخليل ، بل من زاوية استكمال فهم فلسفة الأساس الصوتي عنده ، وتأصيل المباحث الصوتية التي جاء بها بوصفها عنصراً بارزاً في تشكيل النظرية الخليلية .

وسوف أختص من بين هؤلاء الباحثين ثلاثة كنموذج لهذا التناول المخاص لجهد الخليل أما الأول فأستاذنا المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس ، ويدو أن جل ما قاله هنا كان قبل تحقيق كتاب العين ونشره . يقول سعادته « ومن النتائج التي حققها المحدثون أن اللام والميم والتون أكثر الأصوات الساكنة وضوحاً ، وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين (١) » .

وليس يخفى أن النص المحقق الثابت النسبة إلى الخليل فيه ما يدحض هذه الدعوى ويثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الخليل أول من أدرك قوة الوضوح السمعي لهذه الأصوات ومعها الراء والفاء والباء وأطلق على ستة الحروف مصطلح حروف الذلقة أو الحروف الذلقة أو الذولقية ، أى التي تخرج من ذلك اللسان أى طرفه يقول الخليل : « أعلم أن الحروف الذلقة والشفوية ستة وهي : ر ل ن ، ف ب م ، وإنما سميت هذه الحروف ذلقاً لأن الذلقة في المنطق إنما هي بطرفة أسلة اللسان والشفتين وإنما مدرجنا هذه الأحرف الستة منها ثلاثة ذلقة (ذلقية) ر ل ن ،

تخرج من ذلك اللسان من طرف غار الفم ، وثلاثة شفوية : ف ب م . مخرجها من بين الشفتين خاصة ، لا تعمل الشفتان في شيء من الحروف الصحاح إلا في هذه الأحرف الثلاثة فقط ، ولا ينطلق اللسان إلا يالراء واللام والنون ^(١) .

فهذه الذلاقة أو الطلقة أو الوضوح السمعي الذي تسم به هذه المجموعة هي خاصية مميزة تفرد بها من دون بقية الحروف الصحاح ، وهي الخاصية التي جعلتها تتمتع بأعلى نسبة تردد في كل جذور اللغة وهو أمر قرره الخليل قائلاً « فلما ذلت الحروف السته ومذل بهن اللسان ، وسهلت عليه في المنطق كثرت في أبینية الكلام » ^(٢) .

ونصَّ الخليل السابق يعطينا حكماً دقيقاً عن هذه الحزمة الصوتية فقد مذل بهن اللسان أى انتلقت وهو ما يعني أنها تمييز بالوضوح ، وسهلت عليه في المنطق تحمل خاصية السهولة ، وقوله كثرت في أبینية الكلام تعني الشيوع ، والوضوح والسهولة والشيوع خواص معلومة بالنسبة للحركات الطويل منها والقصير ، والسهولة والشيوع أمران مؤكدان للحركات فالحركة أسهل نطقاً من الصامت ، وهي كذلك أكثر شيوعاً لخفتها حسب قانون الجهد ^(٣) ، وفي دراسة إحصائية حديثة أجريت على عينات لغوية من نصوص عربية مختارة استهدفت معرفة نسبة شيوع الغرنيمات في الكلمات (لا الجذور) تبين أن هناك علاقة بين الخواص اللغوية التالية :

- ١ - الشيوع .
- ٢ - الشبات .
- ٣ - السهولة .

١ - ع : ٥٢ / ٥١ .

٢ - ع : ٥٢ / ١ .

٣ - انظر دراسة الصوت اللغوي : ص ٣٣٩ .

« فكلما زاد شيوخ الفونيم زاد ثباته ، وكلما قل شيوخه قل ثباته ، وقد يرتبط المتغيران (الشيوخ والثبات) بمتغير ثالث هو السهولة فكلما زادت سهولة الفوتيم في النطق زاد شيوخه ، وكلما قلت سهولة النطق قل شيوخه ^(١) .

وقد جاءت نتائج هذه الدراسة التي شملت الحركات والصوات مؤكدة أمرین :

الأول : تقدم الحركات على بقية الصوات Consonants ^(٢) .

الثاني : تقدم اللام والتون والميم على بقية الصوات ^(٣) .

وهذه القرابة في الشيوخ والسهولة والثبات بين الحركات من جانب وهذه الأصوات الذوقية من جانب آخر تطابق ما انتهى إليه الخليل من ملاحظة هذه المجموعة من الصوات وتطابق كلام الخليل كذلك إحصائيات الصحاح واللسان لنسبة تردد هذه الصوات في جنور المعجمين السابقين كما يتضح من الجدول التالي :

١ - الأصوات اللغوية (للخولي) ص ١٠٨ .

٢ - السابق ص ١١٧ .

٣ - جاءت اللام رقم ٣ بعد الفتحة والكسرة القصيريتن ، وجاءت التون رقم ٧ بعد الفتحة الطويلة والثاء والضمة القصيري ، ومجئ الفتحة الطويلة والثاء هنا إنما هو بسبب طبيعة الدراسة التي تدرس الكلمات لا الجذور ، وقد جاءت الميم رقم ٨ وهو ما يعني أن هذه الصوات الثلاث تشتراك في الشيوخ مع الحركات . انظر السابق نفس الصفحة .

إحصاءات اللسان (٢)		إحصاءات الصبحاج (١)		الصوت	مسلسل
النسبة المئوية	مرات التردد	النسبة المئوية	مرات التردد		
٧,٨٨٣	٢٤٠٨	٨,٢٨٧	١٤٧٠	ر	١
٦,٢٠٣	١٩٠٨	٥,٩٢٥	١٠٧٥	ل	٢
٦,١٣٨	١٨٨٧	٥,٢١٥	٩٢٥	ن	٣
٥,٩٣٧	١٨٢٥	٥,٧٢٢	١٠١٥	ب	٤
٥,٧٦٤	١٧٧٢	٦,٠٦٠	١٠٧٥	م	٥
٤,١٨٠	١٢٨٥	٤,٣٢٤	٧٦٧	ف	٦

وليس الامر مجرد صدفة لأن تأثير المحكم الخليل الدقيقة في إدراك خواص هذه الأصوات مطابقة للإحصاءات وتلخص سببها في ذلك ، وقربة هذه المجموعة في الأثير مع الحركات بكثرة التردد في بنية الكلمة إنما هي صدى لقرابة في الخواص النطافية . ويكون بذلك الخليل هو الأسبق في الملاحظة من المحدثين .

وإنطلاقاً من كون أستاذنا الكبير على ما يسلو ليس من المعرفين بمنسبة العين للخليل فها هو ينسب إلى ابن جنji مصطلح الذلاقة قائلاً « تلك الحروف التي سماها ابن جنji في كتابه سر صناعة الإعراب بحروف الذلاقة » (٣) .

وليس يخالف من التصور السابق أن المصطلح الصوتي الدقيق هو من تسمية الخليل وليس ابن جنji . بل إن سيادته إنطلاقاً من نفس الأساس الذي لا

١ - إحصاءات الصبحاج ١٠٩ ، لاحظ ترددتها في كل جذر على حدة ص ٥٩ ، ص ٧٥ ، ص ٩٣ .

٢ - إحصاءات اللسان ص ٨٣ ، لاحظ ترددتها في كل جذر على حدة ص ٢٥ ، ص ٤٧ ، ص ٦٣ ، وانتظر ص ٩٥ لترى مقارنة بين إحصاءات الصبحاج واللسان في كل الجذور وهي تدعم نفس النتيجة .

٣ - الأصوات النقرية ص ١٠٩ .

يعترف فيه بنسبة المصطلح للخليل يعود فينسب أيضاً خاصية هذه المجموعة أو السلسلة الصوتية إلى ابن جني فيقول « ويبدو أن ابن جني حين لا حظ كثرة شائع هذه الأصوات في اللغة العربية بحيث لا تكاد تخلو منها كلمة رباعية أو خماسية في أصولها وضع لها هذه التسمية ، واعتبر غيرها من الحروف مصنفة (١) » .

والذى لاحظ ذلك هو الخليل وليس ابن جني وقد سبق اقتباس قول الخليل « فلما ذلت المزوف ستة و مذل بهن اللسان ، وسهلت عليه فى المنطق كثرت فى الكلام ، فليس شيء من بناء الخماسى التام يمرى منها أو من بعضها (٢) » و يضيف الخليل بعد ذلك قائلاً : « وأما بناء الرباعى البسيط فإن الجمهور الأعظم منه لا يمرى من المزوف الذلق أو من بعضها إلا كلمات نحوها من عشر جهن شواد ومن هذه الكلمات المسجد والقسطنطين والقداحس والدعشونية والهدعة والزهرقة وهي مفسرة فى أمكنتها (٣) » .

وبعد أن ينسب ذلك إلى ابن جني يلتجأ إلى الاعتراض عليه واتهامه بالتكلف والتعسف حين حاول الأخير أن يفسر خروج بعض الكلمات عن هذه القاعدة مثل المسجد (٤) ، وأمر شنوده هذه الأمثلة العربية الفصيحة هو حكم الخليل كما يظهر من النص السابق لأن جذور الرباعي والخماسي التي تصل عدتها كما فى إحصاءات اللسان إلى ٢٧٣٥ جذراً (٥) بكل ما يمكن أن يقوله عنها من كلمات تصل إلى عشرات الآلاف حين يوجد نحو عشر كلمات تخرج عن قانون تخضع له هذه النسبة الهاشة فهل وصفها بالشنودة في حاجة إلى تقليل سواء أكان متتكلفاً

١ - السابق نفس الصفحة .

٢ - ع : ١ / ٥٢ .

٣ - ع : ١ ، ٥٣ / ١ : ٤٥ .

٤ - الأصوات الكنورية : ص ١٠٩ .

٥ - تبلغ الجذور الرباعية ٢٥٤٨ وال الخماسية ١٨٧ ، انظر إحصاءات اللسان ص ٢٩ .

أو غير متكلف؟ .

ثم يأتي أستاذنا أنيس ليسكب الخليل إبداعه لطائفة من المصطلحات الخاصة بالجموعات الصوتية ، والتي هي وليدة نظرته الخاصة التي أراد أن يوظف فيها نظرته الصوتية في دراسته للخصائص التركيبية للكلمة العربية معجمياً ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك . فهو الذي أطلق مصطلح أسلية ونطمية ، وشجرية ، ولهوية وذلقية ، « قال الليث : قال الخليل :

فالعين والخاء والخاء والغين حلقة ، لأن مبدأها من المثل ، والقاف والكاف لهوتين لأن مبدأهما من اللهاة ، والجيم والشين والضاد شجرية لأن مبدأها من شجر الفم أي مفرج الفم ، والصاد والسين والزاي أسلية ، لأن مبدأها من أسلة اللسان وهي مستدق طرف اللسان ، والطاء والناء والدال نطمية لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى والظاء والذاء والناء ثلثة (لأن مبدأها من الله ، والراء واللام والتون ذلقية) لأن مبدأها من ذلك اللسان وهو تحديد طرفى ذلك اللسان ، والفاء والباء والميم شفوية ، وقال مرة شفهية لأن مبدأها من الشفة ، والياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد ، لأنها لا يتعلق بها شئ ، فنسب كل حرف إلى مدرجته وموضعه الذي يبدأ منه (١) .

هذا النص الخليلي الواضح الصريح والذى يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الثالث حوالي ٢٥٠ هـ سواء نسب إلى الخليل أم إلى تلاميذه والذى ترددت مصطلحاته في أعمال عالقية من المعجمين بعده كابن دريد والأزهرى والزبيدى والقالي ، كما شاعت عند القراء ، وهم ينسبون ذلك صراحة للخليل (٢) .

بعد كل ذلك يأتي أستاذنا رحمة الله فيقول : « نستطيع بعد هذا أن نقر -

١- ع : ٥٢ / ١ .

٢- النشر في القراءات العشر : ١ / ١٩٩ - ٢٠١ .

ونحن مطمئنون أن هذه المصطلحات قد ظهرت في أوائل القرن الرابع الهجري ^(١) ، ثم يضيف سيادته بعد ذلك « ولكن الذي لا يتحمل النزاع أو الشك أن نسبة هذه المصطلحات للخليل نسبة غير صحيحة ، وإن فقد كنا نتوقع أن تجد لها صدى في كلام سيبويه ^(٢) » .

إذن كل حجة سيادته في دفع نسبة هذه المصطلحات عن الخليل هو كونها لم ترد في كتاب سيبويه ، ومن المعلوم أن العين لم يظهر إلا بعد وفاة سيبويه ب نحو ثلث قرن فكيف سيرددها ؟ ، ثم إن العين عمل معجمي فكر فيه الخليل في أوائل حياته ، وأتته الليث أو جمعه في فترة تقارب الفترة التي توفى فيها سيبويه علما بأن الليث وسيبويه توفيا تقريرياً في نفس الفترة ١٨٠ هـ فمن الطبيعي لا تشيع عند الأخير ، وإذا لم تكن هذه المصطلحات للخليل فلمن هي إذن فلم يدع أحد أنها له ، والنولقية أحد هذه المصطلحات التي سبها سيادته لابن جنى موجودة في مؤلفات المعجميين والقراء قبله . فالقضية في النهاية أن الذين آمنوا بنسبة العين للخليل نسبوها للخليل وأن الذين لم يؤمنوا بنسبة العين للخليل ومنهم ابن جنى أخلوا ما يحلو لهم وتركوا مالا يريدون أحدهه ، فالأمر في النهاية لم يكن في حاجة إلى هذه الأحكام القاطعة بتبنّي نسبة هذه المصطلحات للخليل ، ونسبتها إلى بعض تابعيه ولا أحسب بعد الدراسات الواافية عن العين ونشره محققاً إلا أن نقول إن الخليل في القرن الثاني هو صاحب هذه المصطلحات ، وهي تعكس فكر الخليل الصوتي المتميز ، وهي جزء من منهجه الدقيق في دراسة المعجم .

أما أستاذنا الدكتور كمال بشر فقد تناول بالمناقشة بعض أحكام الخليل ، وأصدر عليها بعض الأحكام التي هي في حاجة إلى إعادة نظر ، وأخصّ هنا حكمين اثنين من أحكامه على جهد الخليل الصوتي :

١ - الأصوات اللغوية : ص ١١٠ .

٢ - السابق : ص ١١١ .

الأول : أنه أورد ترتيب الخليل الصوتي ثم أردد قائلاً : « فهذا يشير بوضوح إلى أن الخليل قد سوى في الخواص والميزات بين الهمزة وحروف العلة وهو حكم جانبه الصواب ^(١) » .

والذى يراه البحث أن الخليل على المستوى الصوتي الحالص ، وكما سبق القول كان يعنى تماماً أن الهمزة صوت له من الخواص والميزات الصوتية ما يميزه بشكل جوهرى عن كل من الألف والتاء والياء ، فهى عنده أول الأصوات الصامتة مخرجاً ، وهى أقوى من ثلاثة الأصوات الثلاثة متناً ^(٢) ، أما بقية الخواص التى يشتهركون فيها معاً والتى يشير إليها سعادته ، فهى الخواص والميزات على مستوى الأثر فى بنية الكلمة معجمياً ، ولا شك أن هذه الأصوات على هذا المستوى الصوتى المعجمى تشتهر فى مجموعة خواص ، وهى السبب الذى دعا الخليل إلى ضمها معاً فى مجموعة واحدة انتلاقاً من هذه الزاوية ، والخليل محقٌ فى التسوية بينها على هذا المستوى فهما يجمعها أنها فى بنية الكلمة تتسم باختلالها وتغيرها من حال إلى حال ودخولها بعضها على بعض واستخلافها بعضها من بعض كما قال ^(٣) وكما سبقت الإشارة لذلك ، فالخطبة إنما جاءت من قراءة نص الخليل قراءة صوتية خالصة ، مع أن الرجل يقدم هذا البيان الصوتى فى معرض فهم أسرار البنية المعجمية والتشكيلات المؤثرة صوتياً فى هذه البنية ومن الخواص المشتركة التى تجمع هذه الأصوات معاً كذلك الضعف التسوى فى كم التردد فى هذه البنية ، وهو ما أكدته الإحصاءات وسبقت الإشارة إليه .

الثانى : أما الحكم الثانى قوله : « أما الأمر الثانى الذى يؤكى عدم الدقة فى النظر إلى الهمزة فيظهر فى الحكم عليها بأنها لا تنسب إلى أى جزء

١ - دراسات فى علم اللغة : ١٠٧ / ١ .

٢ - انظر هـ : ٥١ / ١ .

٣ - هـ : ٥٠ / ١ .

من السان أو الحلق أو اللهاة وأنها تصدر من حيث تصدر الألف اللينة والواو والياء^(١) .

والحقيقة في ذلك أن للخليل مجموعتين من النصوص تتعلقان بأمر الهمزة المجموعة الأولى تجعل الهمزة صوتاً لا حيز له أو لا مخرج له ، وأخرى تنسب الهمزة إلى مدرجة من مدارج النطق ، وحيز محدد من مخارج الأصوات والأمر في النهاية لا يحتاج إلا إعادة قراءة نصوص الخليل ، الأمر الذي سيجلو لنا الحقيقة كاملة .

أما عن النصوص التي لم ينسب فيها الهمزة بخرج معين قوله : وأربعة أحرف جوف وهي : الواو والياء والألف اللينة والهمزة ، وسميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان ، ولا من مدارج الحلق ، ولا من مدارج اللهاة ، إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف ، وكان يقول كثيراً : الألف اللينة والواو والياء هاوية أي أنها في الهواء^(٢) .

وقال في موضع آخر : ثم الألف والواو والياء في حيز واحد والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز تنسب إليه^(٣) .

وقال بعد ذلك أيضاً : والياء والواو والألف والهمزة هاوية في حيز واحد لأنها لا يتعلّق بها شئ^(٤) .

والنصوص السابقة كما أفهم من كلام الخليل وذلك من خلال السياق الذي وردت فيه أنه يتكلّم عن الهمزة التي قال عنها : إذا رفّتها صارت الواو والياء والألف عن غير طريق الحروف الصحاح^(٥) وقوله إنها تصبح حرفاً غير الحروف

١ - دراسات في علم اللغة : ١٠٩ / ١ .

٢ - ع : ٥٧ / ١ .

٣ - ع : ٥٨ / ١ .

٤ - ع : نفس الصفحة .

٥ - ع : ٥٢ / ١ .

الصحاح في الخواص تعنى أنه يتكلّم عن صوت أقرب إلى الألف والواو والياء في الخواص النطقية العامة وهي حرية مرور الهواء من جانب والجهر من جانب آخر ، وأليست هذه طبيعة الهمزة المسهلة في مثل راس ، وذيب ، أو من ؟ إنها « أشبه بأصوات العلة »^(١) .

أما النصوص التي تسبّب فيها الهمزة نخرج محمد فمنها قوله « فالآلف اللينة هي أضعف الحروف المعتلة ، والهمزة أقواها متّاً ومخرجها من أقصى الحلق من عند العين »^(٢) ، ويقول في موضع آخر « وأما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوة مضغوطة »^(٣) .

وقال في موضع آخر : « والياء والواو والألف اللينة منوطات بها (يقصد بالهمزة) ومدارج أصواتها مختلفة ، فمدرجة الآلف شاخصة نحو الفار الأعلى ، ومدرجة الياء مختفصة نحو الأضيراس ، ومدرجة الواو مستمرة بين الشفتيين ، وأصلهن من عند الهمزة ، ألا ترى أن بعض العرب إذا وقف عندهن همزهن ، كقولك للمرأة افعلي وتسكت ، ولللاتين افعلوا وتسكت ، وللقوم افعلوا وتسكت ، فلما يهمن في تلك اللغة لأنهن إذا وقف عندهن انقطع أفالاً هن فرجعن إلى أصل مبتدئين من عند الهمزة »^(٤) .

وليس من العسير أن نفهم من مجموعة النصوص الأخيرة أنه إنما يتكلّم عن الهمزة التي هي صوت صامت أو ما يعرف بالرقة الجنحية Glottal stop ، وهي لا مشاحة صوت له حيز ومخرج هو أقصى الحلق ، وإذا فهمنا الحلق على أنه منطقة

١ - انظر مناهج البحث في اللغة ص ١٢٥ ودراسات في علم اللغة : ١ / ١٠١ .

٢ - هـ : ١ / ٥١ .

٣ - ع : ١ / ٥٢ .

٤ - هـ : ١ / ٥١ .

أوسع ما نفهم الآن بحيث تشمل المخجرة^(١) يكون كلام الخليل هنا قد طابق من حيث تحديد مخرج الهمزة ما انتهى إليه الحدثان.

وإذا كان ذلك كذلك فلا تناقض في نصوص الخليل التي لم يذكر فيها للهمزة مخرجأً ونوصوته التي ساقها ونسب فيها الهمزة لغير معين ، لأن نوصوته الأولى سبقت لغرض وهو وصف الهمزة المسهلة ونوصوته الثانية سبقت لغرض آخر وهو وصف الهمزة الحقيقة .

أما الأستاذ الدكتور حسين نصار ، وهو صاحب دراسة متخصصة في المعجم العربي فيقول عن الخليل إنه « اضطرب في حروف العلة ، ولم يرتبها ، ولكن جمعها معاً دون تمييز ، وتخلى بهذه الطريقة من مشكلة عريصه واجهته فيها ، فهو شاعر بأن الهمزة مختلفة عن بقية حروف العلة ولكنه لا يستطيع أن يصوغ هذا الشعور صياغة واضحة^(٢) » .

وأنا لم أقرأ لأحد لا في القديم ولا في الحديث أنه وصف الخليل بعدم القدرة على التمييز ، ولا بالعجز العلمي الذي يهرب به من المشكلات التي يواجهها ، ولا بالصى الذي يعيقه عن التمييز عما يدرك كما وصفه سعادته . فالخليل لم يجمع حروف العلة ومعها الهمزة معاً جمماً عشوائياً ودون تميز كما تصور الباحث بل إنه جمعها ووضعها في ذيل القائمة من الجمومعات الصوتية التي انقسمت إليها أبجديته ، لأن هذا هو مكانها الطبيعي بوصفها وحدات صوتية تلعب دوراً متماثلاً في تشكيل بنية الكلمة العربية معجنياً ، فهي أضعف أصوات اللغة ثباتاً في هذه البنية وأقلها تكراراً ، والذى فعله الخليل بهذه المجموعة هو ما انتهت إليه الدراسات الإحصائية ، وقد سبقت الإشارة إلى الأرقام التي سجلت لهذه الأصوات^(٣) ، وليس أدق من لغة الأرقام قيلاً .

١ - انظر دراسات في علم اللغة : ١ / ١١٢ .

٢ - معجم العربية : ١ / ٢٤٢ و ٢٤٥ .

٣ - انظر هذا البحث ص ٣٩ .

وفي النهاية ليس البحث بقصد الدفاع عن شخص الخليل ، وإنما أرمى من وراء هذه السطور في حواري مع أستاذتي أن أدفع ظلماً وقع على الخليل تارة بالنظر إلى جهده على أنه مجرد تصنيف مبتسر لعمل معجمي ، ومرة بسلبه إبداعه ونسبته لسواء حتى لو كان عن غير قصد وتارة ثالثة بفهم نصوصه على نحو ما وتوظيفها توظيفاً لم يقصد ، وهو أمر أحسب أن من واجب البحث أن يشير إليه وأن يضع عمل الخليل حيث ينبغي له أن يوضع ، ومن أسف أن هذا المنظر العربي النابه قد ظلم قديماً وظلم حديثاً مع الاعتراف النظري من الأولين والآخرين بأعماله وعلوّ كعبه .



الفصل الثالث
الأساس الكمى

الفصل الثالث : الأساس الكمي

١- إن حديث الخليل عن كمية الكلمة في تقاديمه لنظريته نال منه الخالفون على تفاوت في الدرجة بينهم جميعاً ، فبعض من جاءوا بعده اقتصروا على تعديل التصنيف الكمي بهدف تسهيل مهمة الدارسين في الاستفادة من المعجم التي يصنفونها ومن هؤلاء مثلاً القالى في البارع والزيدي في مختصر العين وتبعد في ذلك ابن سيدة في الحكم وابن دريد في الجمهرة وابن فارس في مجملة ومقاييسه وبعض آخر طرح فكرة الأساس الكمي من تصنيفه كالمجهرى في الصحاح ومن تبعه في منهجه كابن منظور في اللسان والقىروزبادى في القاموس الحيط والزيدي في تاج العروس . وبهذا أدار صناع المعجم ظهرهم لفكرة الأساس الكمي دون أن يلتفت أحد من جاء بعد الخليل إلى فلسفة هذا الأساس سواء الذين عدلوا الفكرة أم الذين لم يأخذوا بها كلية لأن الجميع تصور أن الخليل كان يرمى من وراء فكرته إلى تقديم إجراء تصنيفي ، وهو أمر يفترض هذا البحث أنه دون حقيقة الفكرة كما فقرت إلى ذهن الرجل ، إنه خطوة منهجية يتكىء عليها للوصول إلى أمرين مما .

الأمر الأول : أنه الخطوة الأولى لحصر المادة اللغوية بشكل منظم ، ومن خلالها سيطبق فكرة التقسيب ، وبدون خطوة المعالجة الكمية يصبح الإجراء التقليبي الذي تعرف من خلاله على طاقة اللغة في بناء مفرداتها والتعرف على المستعمل والمهمل هدفاً لا يمكن تحقيقه ، وليس بالضرورة بعد أن تعرف على هذه الطاقة أن يعتمد التصنيف المعجمي على أي من هذين الأساسين ، فيمعرفة أصناف الكلمة كمياً أستطيع أن أنطلق إلى تطبيق الأساس التقليبي ، وبهذا مما يتحقق الإجراء الحصري وهو إجراء تنظيمي منهجى لابد منه لأى منظر معجمى .

الأمر الثاني : أن هذا الإجراء سيكمل الإجراء السابق - الإجراء الصوتى - في التعرف على طبيعة الكلمة معجماً ، وأى الجنور أكثر ترددًا وأيها أقل ترددًا ، وهو أمر تبدو أهميته البالغة في لغة الاشتقادية كالعربية ، ولا شك أن قوانيين الاشتقاد تختلف في التعامل مع الجنور الثلاثية عنها مع الجنور الرباعي ،

وهنا تظهر قيمة الحديث عن الصحيح والمغتال في داخل التقسيم الكمي لما يترتب على ذلك من أثر في قواعد التصريف إذ يختلف قانون إسقاط الفعل مثلاً إلى الصحيح عن إسقاطه إلى المغتال .

فالمنظر المعجمي الذي يلتقي إلى فلسفة الأساس الكمي في النظرية المعجمية لا يشتت الفكر ولا يbedo الجهد ويرهق الذهن بين الثنائي والثلاثي والرباعي والخمساني والمغتال والصحيح كما تخيل ابن منظور ، بل هذا أمر من لوزام النظرة إلى فلسفة النظام المعجمي ، حتى لو لم يكن - وهو غير ما أعتقد - له قيمة على مستوى التصنيف المعجمي ، أو كان عنصراً معيقاً لمن يتعامل مع القاموس .

واللافت للنظر في كلام الخليل عن فكرة الكمية أنه يصوغها صياغة محكمة من جانب ، وفيها تعميم وطرد بشكل يشبه القانون اللغوي من جانب آخر ، فهو حين عرض لأنواع الكمييات حصرها في أربعة قائلات « كلام العرب مبني على أربعة أصناف على الثنائي والثلاثي والرباعي والخمساني (١) » .

فليس في كلام العرب بناءً على هذه القاعدة كلمة أقل من حرفين ، كما لا توجد كلمة عربية مبنية في الأصل على أكثر من خمسة أحرف إإن كلام أشبه بالقاعدة اللغوية أو القانون الذي يتسم بالحصر والشمول ، فهل تم خرق هذا القانون في ضوء الإجراء الإحصائي لمعجمي الصحاح واللسان ؟ أما إحصاءات اللسان فنقول (٢) :

- أ - ليس هناك جذور أقل من حرفين .
- ب - الجنور الثنائية يقل عددها عن عشرين جذراً ، وهي تمثل قرابة جزء من خمسماة جزء من جذور اللسان .

١ - انظر ١ ع / ٤٨ / ١ ، هـ : ١ / ٤١ .

٢ - انظر إحصاءات اللسان ص - ٩ .

ج - ما زاد على خمسة أحرف حوالي ست عشرة كلمة وهي في الغالب من أصل غير عربي .

د - الجندر الثلاثية والرباعية والخمسية الواردة بلسان العرب تمثل ٩٩,٦٪ من جملة جذور المعجم .

وحيث نقدم نحن إلى الخليل - ولا أقول نرجع - لنرى بعض ما يضيء ذلك نحمد الله يقول : « وليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف ، فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو اسم ، فاعلم أنها زائدة على البناء ، وليس من أصل الكلمة مثل : قر عبلانة إنما أصلها قرubble ، ومثل عنكبوت ، إنما أصل بنائها عنكب » .

ثم يضيف قائلاً : الاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف مثل سعد وعمر ونحوهما بدأ به بالعين (يقصد في مثال عمر) وحشيت الكلمة بالمير ووقف على الراء ، فأما زيد وكيد فالإيات متعلقة لا يعتد بها (١) .

وكان الخليل حريصاً على أن يقدم وصفاً دقيقاً لكل نوع منها ، وتنسم عبارته بالحساسية الشديدة ، فهى مرنة في بعض الأحيان حين تكون المادة واسعة لا يمكن إخضاعها لقاعدة ، وتكون صارمة قاطعة طابع القانون حين تكون الظاهرة مما يمكن أن يخضع للضبط والتعديل .

وسوف يتناول البحث كلام الخليل عن كل نوع منها بالتفصيل ، لتعرف مجموعة الأحكام التي انتهتى إليها من ملاحظة المادة المعجمية .

٢ - الثنائي :

بدأ الخليل كلامه عن الثنائي بالتمثيل له قائلاً « فالثنائي على حرفين نحو :

قد ، لم ، هل ، لو ، بل ، ونحوه من الأدوات والزجر^(١) ، فالثانية الذى لا تتجاوز نسبته ٤٠ ، ٠٪ أو هو بدقة ٣٧٢ ، ٠٪^(٢) محصور فى الحروف والأدوات وأسماء الأصوات^(٣) . والأمثلة التى قدمها الخليل للثانية تعكس وعيه تمام بأنه أقل الأنواع الأربعية فى اللغة ، وأنه ليس الأصل بالنسبة للكلمة العربية .

وإذا كان ذلك كذلك فإن دعوى ثانية الأصل اللغوى للكلمة العربية التى ذهب إليها نفر من الباحثين قد يبدأ كالراغب الأصبهانى وحديثاً كالأب أنسطاس مارى الكرملى والأب مرمرجى الدومينيكى هى دعوى لا يدعمها الواقع اللغوى ويبعدوا أن منطلق الخليل فى رصد المادة اللغوية وإصدار الأحكام عليها يختلف عن منطلق دعاء الثانية . فعلى حين يحمد الخليل على منهج يمكن وصفه بأنه منهج وصفى استقرائي يرصد مادة اللغة الواقعية الفعلية ، ويصل من خلال هذا الواقع إلى أحكامه ، على حين تجد أن دعاء الثانية يلتجئون إلى منهج آخر يمكن وصفه بأنه منهج تاريخي يعتمد على أساس مفترض ، وعلى حين يدعم الواقع اللغوى نتائج الخليل ومن لفّ لفه ، تجد أن كلام أنصار الثانية يعتمد على التخمين الذى يفتقد إلى الدليل ، وعلى المستوى العلمى البحث فإن ما يمكن التدليل عليها وإثباته أدى إلى القبول من فرضية لا يمكن التدليل عليها بيسر . وحتى على المستوى التاريخي المنظور فإن الدرس السادس السادسى المنهجى انتهى إلى القول بثلاثية الأصل عند المحققين من العلماء الذين أسهموا بجهدهم فى هذا الميدان^(٤) . وسوف نعود إلى هذه النقطة ببعض التفصيل فى الفصل الأخيرة إن شاء الله .

١- ع : ٤٨ / ١ .

٢- إحصاءات الصحاح ص ٥١ .

٣- هنا ما فيه أستاذنا عبد الله درويش من كلمة (الزجر) عند الخليل انظر ص ٣ من الجزء الذى حققه .

٤- انظر مثلاً تاريخ اللغات السامية ص ١٦ ٢١٤ ، اللغات السامية ص ٩ ، دروس اللغة العبرية ١٩ ، فصول فى فقة اللغة ص ٤٥ .

ولعل هذا الحكم المتواضع ، والذى يترتب عليه أن يكون للثنائى دور متواضع كذلك على مستوى مادة المعجم وتشكيل فلسقتها العامة نحمد الدراسين الإحصائيتين تفضان الطرف عن هذا الثنائى وتطرحانه من نتائج الإحصاءات كما فعلت نفس الشئ بالنسبة للكلمات الزائدة عن خمسة أحرف (١) .

ونظراً لهذا الدور المحدود للمادة الثنائية في المعجم العربي ، فإن الأحكام التي أصدرها الخليل عنه قليلة ، وتکاد تتحصر في إشارة تدخل في إطار طرد القانون ، وذلك حين تحدث عن أن الكلمة الثنائية لا تكون اسماً ، وإذا جئ منها باسم خضعت لقانون اللغة العام في ذلك وهو أن تبني من ثلاثة أحرف ويشير إلى ذلك قائلاً : فإن صيغت الثنائى مثل قدْ وهلْ اسمأً أدخلت عليه التشدید فقلت : هذه لو مكتوبة ، وهذه قدْ حسنة الكتبة ، زدت ولوأ على ولو ، ودادأ على دال ، ثم أدغمت وشدّدت فالتشدید علامة الإدغام ، والحرف الثالث كقول أبي زيد الطائي

لیت شعراً وأین منی لیتْ
إن لیتاً وإن لـوأ عنـاءَ
فـشـدـدـ (لـوـأـ)ـ حـينـ جـعلـهـ اسمـاـ .

قال ليث : قلت لأبي الدقيش هل لك في زيد ورطب ؟ فقال : أشد الـهـلـ
وأـوـحـاهـ . فـشـدـدـ الـلـامـ حـينـ جـعلـهـ اسمـاـ (٢) .

فهر في هذه الإشارة : طرد القانون اللغوى الذى صاغه من كون الاسم يبني في حده الأدنى على ثلاثة أحرف ، وبعض الكلمات المكونة من حرفين إذا أريد أن تدخل مجال الأسماء خضعت لنفس القانون ، ولا يترك ما ذهب إليه مجرد فرض نظرى بل شفعه بالدليل اللغوى من استعمال العرب أنفسهم ، وهكذا الخليل دوماً لا يصدر في أحكامه إلا من الواقع اللغوى .

١ - إحصاءات اللسان ص ٩ .

٢ - ع:٤٨/١٠٠ .

٣ - ١ : الثلاثي :

أما عن المادة الثلاثية فقد أشار إليها في أكثر من موضع ، غير أن كلامه عنها اتسم بالحرص فلم يكثر من الأحكام العامة ، خلافاً لما حدد مع الرباعي والخمساني الذي أصدر عدة أحكام تتصل بهما ، ويبدو أن طبيعة المادة الثلاثية الغزيرة ، والتي تمثل نحو ٧٠ % من مادة اللغة قد جعلته حريصاً على هذا التحفظ في إصدار الأحكام إذ ليس من السهولة أن يُخضع الباحث هذه المادة للرصد الدقيق الذي يمكنه من الخلوص إلى ظواهر تخص البنية من ذلك النوع الذي يمكن وصفه بالعموم .. وقد بدأ حديثه عن الثلاثي بالتمثيل للكلمة الثلاثية فقال « والثلاثي من الأفعال نحو قوله ضرب (١) ، خرج ، دخل مبني على ثلاثة أحرف ، ومن الأسماء نحو عمر وجمل وشجر مبني على ثلاثة أحرف (٢) » .

وكلام الخليل هنا يعني الأمور التالية :

- أن الكلمة الثلاثية لا تكون إلا اسماً وفعلاً فقط ، ولا تكون تأسيساً على ذلك حرفاً أبداً ، وينبني أن ينظر إلى الحرف الذي يرد على أكثر من حرفين على أن فيه زيادة مثل : لعل ، وليت ، أو أنه مركب مثل ربي ، وإنما .

- أنه ذكر ثلاثة أمثلة للاسم ومثلها للفعل ، وهو ما يفهم منه ضمناً أن نماذج الثلاثي من الأسماء والأفعال كثيرة فلا ميزة لأحدهما على الآخر من حيث الكم . وتبعد هذه الملاحظة بدهية لا تستحق هنا التسجيل ، ولكنها ذات قيمة سلبية حين تتناول الأنواع الأخرى كالخمساني مثلاً . حيث منقف أمام الخمساني لتبيين من خلاله حقيقة وجود أفعال خمسانية الأصل أم لا .

١ - حين نقل Haywood هذا النص ذكر خرب Kharaba بدلاً من ضرب ، وهو خطأ في قراءة النص - العربي ، وقد تكرر من نظائر هذا الخطأ كثير من الأمثلة ، سأشير إلى بعضها في حينه انظر 29 Arabic Lexicography, P - .

٤٢ / ١ ، ٤٨ / ١ - ٢ -

- إذا كان الثلاثي هو أكثر مادة اللغة من جانب ، وهو تبعاً لذلك أصل هذه المادة والطبيعة الاسمية والفعلية متساوية في هذه المادة الأصل . إذا دعوى فعلية الأصل أو اسميته أقرب إلى الفرض التخميني منه إلى الحقيقة العلمية التي يمكن التتحقق منها .

٣ - ٢ - وما قاله عن الثلاثي أيضاً تميزه بين نوعي الثلاثي من حيث الصحة والاعتلال « وتفسير الثلاثي الصحيح أن يكون ثلاثة أحرف ولا يكون فيها واو ولا ياء ولا ألف (لينة ولا همزة) في أصل البناء ، لأن هذه الحروف يقال لها حروف العلل ، فكلما سلمت الكلمة على ثلاثة أحرف من هذه الحروف فهي ثلاثة صحيح مثل ضرب ، خرج ، دخل ، والثلاثي المعتل مثل : ضرا ضرى ، ضررو ، خلا ، خلى ، خلو ، لأنه جاء مع الحرفين ألف أو واو أو ياء فافهم (١) » ويلفت نظرنا في هذا النص ما يلي :

- أنه النص الوحيد الذي تعرض فيه خاصية الصحة والاعتلال ، وهو ما يعني أنها خاصية من خصائص البنية المجمعة خلافاً لبعض الخصائص الكثيرة التي تخص بنيتها الصرفية كالاتبعدي واللزوم والبناء للمعلوم أو المجهول ، وتوكيد عدم التوكيد بالتون وغيرها .

- أنه اقتصر في حديثه عن هذه الخاصية على الكلمة الثلاثية ، وهو ما يعني ضمناً أنه يؤمن أن الكلمة الثلاثية هي الأصل ، وأن المعتل من غير الثلاثي خاصية أصله ثلاثي مثل حوقل ، جورب رهوك يطر ونظائرها . وعليه فلم يُعد لظاهره الصحة والاعتلال فيما زاد على ثلاثة .

- قوله (ولا همزة) زيادة أضافها المحققات عن التهذيب وهي عندي مهمة في فهم علله ذكر خاصية الصحة والاعتلال ، إذ الهدف هو التعرف على قضية

انقلاب أحرف العلة بعضها من بعض في بنية الكلمة ، والهمزة في هذه الناحية تشارك هذه الحروف ، وإن لم تكن من حروف العلة بدليل أنه لم يذكر لها مثلاً في آخر النص ، مع حرصه على ذكر مثالين لكل من الألف والواو والياء . وهو دليل على أمرين مهمي .

الأول : أنه يعي أنها تختلف عن الواو والألف والياء في خاصية الصحة والاعتلال ، فالهمزة صحيحة وثلاثتها علل .

الثاني : أنه تأسساً على الأمر الأول فإن الهمزة تختلف من حيث طبيعتها النطقية عن هذه الثلاثة حين تكون مدةً . فالهمزة صامتة ، وهذه الثلاثة حين تكون مدةً مثل قال - يصوم ، يبيع فهي حركات وهذا تأكيد لما سبق معالجته عن الهمزة والألف في الفصل السابق .

ولكن ثلاثة الحروف مع الهمزة في هذا السياق تشتراك في أمرين مهمين كذلك :

الأول : الإعلال وانقلاب بعضها من بعض ، وعليه فهي من أضعف الأصوات ثباتاً في بنية الكلمة .

الثاني : اتفاقها معًا في الضعف النسبي في نسبة التردد في هذه البنية ، وهو ما سبق الإشارة إليه من خلال الإحصاءات في الفصل السابق .

٣ - ٣ : و تعرض الخليل في موضع آخر لأمر يخص الثلاثي ، وهو بعض أشكال الاشتلاق من الكلمة الثلاثية فيقول « والعرب تشتق في كثير من كلامها أبنية المضاعف من بناء الثلاثي المثقل بحرف التضعيف ، ومن الثلاثي المثقل ، إلا ترى أنهم يقولون : صَلَّ اللَّهُمَّ يَصْلِلَ صَلِيلًا ، فلو حكى ذلك قلت : صَلَّ تَمَدَ اللَّام وَتَشَقَّلَها ، وقد خفقتها في الصلصلة وهو جمِيعاً صوت اللجام ، فالثقل مدةً والتضاعف ترجيع يخفّ فلا يمكن لأنه على حرفين ، فلا يقدر للتصرير حتى

يضاعف أو يقل فيجيء كثیر منه متفقاً على ما وصفت لك ، ويجيء منه كثیر مختلفاً نحو قوله : صرَّ الجندي صريراً ، وصر صراً لأن خطب صر صرا ، فكأنهم توهوا في صوت الجندي مداً ، وتوهموا في صوت الخطب ترجمياً ، ونحو ذلك كثیر مختلف . وأما ما يشتقون من المضاعف من بناء الثلاثي المعتل ، فنحو قول العجاج :

ولو أنخنا جمعهم تنخنخوا

وقال في بيت آخر :

لفحلنا إن سرَّه التنوخ^(١)

ولو شاء قال في البيت الأول ، (ولو أنخنا جمعهم تنوخوا) ولكنه اشتق التنوخ من تنوخناها فتوخحت ، وانتق (التنوخ) من أنخناها ، لأن أنخ لما جاء محققاً حسن إخراج الحرف (المعل) منه ، وتضاعف الحرفين الباقيين في (تنوخنا تنوخنا) وما تقل قوتها الواو فثبتت في التنوخ فافهم^(١) .

يشير الخليل في هذا النص إلى مسلكين من أشكال الاشتقاد ، وظفهما العربي ليكون لكل منهما دور يناسب دلاته .

الشكل الأول : الاشتقاد بما سماه الثلاثي المقل بحرفى التضعيف أو ما يسميه الصرفيون بالثلاثي المضعف مثل صلٌ ، وصرٌ وقد لاحظ الخليل في هذا النوع :

أ - أن العرب تشتق في كثير من كلامها من نماذج هذا الشكل فتقول : صل صللاً ، وصرٌ صريراً ، ورأى أن المد في الكلمة المشتقة (صليل ،

١ - البيت الأول والثانى ليسا سوى شطري بيته واحد كما أشار إلى - ذلك أستاذنا هارون في التهذيب مُحِيلًا إلى ديوان العجاج انظر هـ ١ / ٤٧ .

٢ - ع : ١ / ٥٦ / ٥٧ .

وصرير) فيه مناسبة للمعنى الذي تعبّر عنه الكلمة أو يعبر عنه صوت الكلمة.

بـ - كما أنهم يشتكون كذلك من هذا النوع بكثرة على مثال صلّ صلصلة وصرّ صرصة ، وذلك بتحفيض صلّ وصرّ لتصير صلّ ، وصرّ ، ثم يضاعفون الكلمة فيصير بناؤها مناسباً للترجميـع ، فإن شاء العربيـيـ - كما قال الخلـيل - اكتفى بها مـرة ، وإن شـاء أعادـها مـرتـين أو أـكـثـرـ من ذلك فقال : صـلـ صـلـ صـلـ فـيـتـكـلـفـ منـ ذـلـكـ ماـ بـدـاـهـ (١) ، فـأـمـرـ التـرـجـيـعـ أوـ التـكـرـارـ إـنـماـ هوـ تـعـبـيرـ عـمـاـ يـحـسـهـ الـعـرـبـيـ مـنـ كـوـنـ الصـوـتـ يـنـاسـبـ الـحـرـكـةـ التـيـ يـعـبـرـ عـنـهـ وـالـىـ ذـلـكـ يـشـيرـ (٢) وـأـمـاـ الـحـكـاـيـةـ الـمـضـاعـفـةـ فـلـانـهاـ يـمـزـلـةـ الصـلـصـلـةـ وـالـزـلـزـلـةـ وـمـاـ أـشـبـهـمـهاـ : يـتـوـهـمـونـ فـيـ حـسـنـ الـحـرـكـةـ مـاـ يـتـوـهـمـونـ فـيـ جـرـسـ الصـوـتـ ، يـضـاعـفـونـ لـتـسـتـرـ الـحـكـاـيـةـ عـلـىـ وـجـهـ التـصـرـيفـ (٣) ئـمـ يـفـسـرـ الـخـلـيلـ هـذـاـ الـمـدـ وـذـلـكـ التـضـعـيفـ كـسـلـوكـ لـفـوـيـ قـالـلـاـ : كـأـنـهـ تـوـهـمـواـ فـيـ صـوـتـ الـجـنـدـبـ مـدـاـ ، وـتـوـهـمـواـ فـيـ صـوـتـ الـأـخـطـبـ تـرـجـيـعـ (٤) ، كـأـنـ الـعـرـبـيـ إـنـماـ يـشـتـقـ بـعـضـ الـكـلـمـاتـ مـحاـكـيـاـ الصـوـتـ الـذـيـ تـعـبـرـ عـنـهـ الـكـلـمـةـ ، وـهـىـ إـشـارـةـ ذـكـيـةـ وـمـبـكـرـةـ لـتـلـكـ الـظـاهـرـةـ الـمـعـرـوـفـ بـمـحاـكـاـةـ أـصـوـاتـ الـطـبـيـعـةـ Onomatopoeia ، وـيـأـتـىـ إـدـرـاكـ الـخـلـيلـ لـهـاـ مـنـ جـانـبـ وـتـبـيـرـ الـدـقـيـقـ عنـهـ آـيـةـ عـلـىـ مـنـهـجـ خـلـيلـيـ مـتـمـيـزـ بـالـحـسـاسـيـةـ الـعـلـمـيـةـ وـالـقـدـرـةـ عـلـىـ وـصـفـ الـظـاهـرـةـ بـعـيـارـةـ دـقـيـقـةـ مـنـ ذـلـكـ قـوـلـهـ (ـفـيـجـىـءـ كـثـيرـ مـنـهـ مـتـفـقـاـ عـلـىـ مـاـ وـصـفـتـ لـكـ (ـيـقـصـدـ ثـوـذـجـ صـلـ صـلـلـاـ وـصـرـصـرـاـ) وـيـجـىـ، كـثـيرـ مـنـهـ مـخـلـفـاـ (ـيـقـصـدـ ثـوـذـجـ صـلـ صـلـصـلـةـ وـصـرـصـرـةـ) . وـفـيـ

١ - ع : ١ / ٥٥ .
 ٢ - السابق نفسه الصيغة .

٣-ع:١/٥٦

ذلك اعتراف بوجود الظاهرة في اللغة ولكنه لا يتخذ من وجودها أساساً يبني عليه أحكاماً ، أو يفسر موضوع الشأة اللغوية على نحو ما فعل غيره من اللغويين قديماً وحديثاً . إذ أكتفى الخليل برصد الظاهرة ويقاد موقفه منها لا يتجاوز موقف المحققين من علماء اللغة المحدثين من الظاهرة ، حين سلماً بوجود أمثلة منها في كل اللغات لكنها ليست قانوناً مطروحاً يفسر نشأة اللغة البشرية .

وهنا تجمل الإشارة إلى الفرق الجوهرى بين الخليل وبين خالقىه فى رصد الظاهرة اللغوية ، إنه عالم لغة يرصد الظاهرة ، ويصفها كما هي موجودة فى الواقع اللغوى ، ولا يبني على الظاهرة أحكاماً إلا إذا اتسمت بالشمول والاطراد . على حين يلتقط خالقىه الظواهر التى سجلها ويتوتون عليها أحكاماً تنسى فى بعض الأحيان بالغلو والاعتساف ، بل فى كثير من الأحيان تنسى إليهم ، فعلى الرغم من أن ابن جنى فصل القول فى أمثلة هذه الظاهرة ، فقد أقرّ بأنه ليس أول من أدركها وسجلها قائلاً « أعلم أن هذا موضع شريف لطيف ، وقد نبه عليه الخليل وسيبويه وتلقى الجماعة بالقبول والاعتراف بصححته قال الخليل : كأنهم توهموا فى صوت الجندي استطالة وبدأ فقالوا صرّ وتوهموا فى صوت البازى تقطيعاً فقالوا صر صر^(١) » كما يشير إلى أن سيبويه سلم بما قال به أستاذه فى الظاهرة حين ذكر أن المصادر التى جاءت على الفعلان إنما تأتى للاضطراب والحركة نحو التفزان والخليان والغشيان فقابلوا بتوالى حركات المثال توالى حركات الأفعال^(٢) بالرغم من هذا الاعتراف الصريح بأن رائد العلماء العرب فى ملاحظة الظاهرة هو الخليل فإن الاستاذ صبحى الصالح يقول : « إن ابن جنى يظل رائد اللغويين القدامى الذين لاحظوا الظاهرة وقرروها^(٣) » ويدوّن أى كثيراً من أفكار الخليل فى مجال النظرية

١ - المصادص ٢ / ١٥٢ / ١٥٣ .

٢ - السابق نفس الصفحة .

٣ - دراسات فى فقة اللغة ١٥١ .

اللغوية قد سلبت ونسب أكثرها لابن جنى ، وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك في الفصل الأول ، وسوف يشير البحث إلى بعض آخر في مواضع تالية من هذا البحث . على الرغم من أن ملاحظة ابن جنى للظاهرة التي نحن بصددها - ولسواءا كذلك على ما يبدو - تسمى أكثر الأحيان بالغلو خلافاً لمنهج الخليل الاستقرائي الوصفي للظاهرة ، وأحكامه الموضوعية الدقيقة التي لم تتجاوز تفسير الظاهرة والتسليم بوجودها وشنان بين هذا الموقف وموقف ابن فارس وأ ابن جنى بل وعبد الصيرمي^(١) الذي يؤمن بطبيعة العلاقة بين اللفظ والمدلول ذلك الاتهام الذى تصل أحكامه إلى حد الانفلات الطمى .

٤ - ١ : أما عن بناء الرباعى ، فإن الخليل قد أشار إليه بشيء من التفصيل ، وأصدر من خلال ملاحظة مادته عددة أحكامه تخصبه ، ويبدو أن ثمة أموراً ساعدته على ذلك ، منها وجود ظواهر مطردة في المادة الرباعية ، كما أن كم هذه المادة محدود نسبياً^(٢) بالقياس إلى الثلاثى ، الأمر الذي ساعد على إمكانية الملاحظة الدقيقة ، وإصدار الأحكام العامة .

٤ - ٢ : أما أول ما صرخ به عن الرباعى قوله : « والرباعى من الأفعال نحو دحرج هملج ، قرطس . مبني على أربعة أحرف ، ومن الأسماء نحو عبر وعقرب ، وجندب وشيبة^(٣) . »

١ - انظر رأية في المزهر ٤٧ / ١ .

٢ - يبلغ مجموع المذور الرباعية ٢٥٤٨ جلراً حسب إحصاءات اللسان ص ٢٩ بسبة ٢٧,٥٪ من جملة جذور المعجم ، وقد ذكر ص ٢١ أن مجموع الرباعى ٢٤٥٨ ، وهو خطأ مطبعي والصواب هو الرقم الأول الذى ذكره ص ٢٩ لأن مجموع المذور ص ٢٩ هو ٩٢٧٣ منها ٦٥٣٨ للثلاثى و ١٨٧ للخمسى و مجموعهما معاً ٦٧٢٥ فيكون الباقى هو مجموع الرباعى وهو ٢٥٤٨ .

٣ - ع ٤٨ ، ونقل Haywood كلمة عقرب فقال (عجر) abgar وهو خطأ - على ما يبدو كلامي انظر 29 - Arabic Lexicography, P -

ومن نص الخليل السابق نفسهم ما يلى :

- أن الكلمة الرباعية إما أن تكون اسمًا أو فعلًا ولا تكون بالضرورة حرفاً أبداً .
- أنه مثل للفعل بثلاثة ومثل للاسم بثلاثة كذلك وهو ما يعني ضمناً أن الصنفين شائعان في الرباعي ، ولا مزية لأحد الصنفين على الآخر من حيث الكم في اللغة .
- قوله : مبني على أربعة أحرف يفهم منه أن العرب تبني الكلمة في اللغة على هذا العدد بكثرة ، وهو حكم مخالف لما قال به بعض اللغويين كابن فارس وسواء من أن « الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت مثل قول العرب (ضيَّطر) من (ضبط) و (ضير) وفي قولهم (صهصلق) أنه من (صهل) و (صلق) وفي (الصلدم) أنه من (الصلد) و (الصدم) ^(١) . وهو أمر منعد له بشيء من التفصيل ، غير أننا نشير هنا إلى أن الخليل هو رائد من قال بالتحت ولكنها وضع الظاهرة كذلك في حجمها الطبيعي من اللغة ، كما أنه هنا يشير إلى أن العرب يبنون كثيراً ككلمات رباعية الأصل ، وهو ما يدعمه الواقع وتدعيمه كذلك الإحصاءات الدقيقة ، فإذا كان حجم الكلمات المنحوته عند بعضهم حوالي ثلاثين أو ستين أو ثمانين كلمة ولا يتجاوز ثلاثة كلمة عند آخرين في حصرها ^(٢) فإن مجموع الجنور الرباعية حسب إحصاءات اللسان تصل إلى ٢٤٨ جنراً يمكن أن تولد عشرة أضعاف هذا الرقم من الكلمات الرباعية . الأمر الذي يعني أن المنحوت منها هو نسبة لا تصل إلى ١ % إذا سلمنا بصحة أعلى الأرقام التي سجلت الأمثلة المنحوتة ..

١ - انظر الصاحبي ص ٤٦١ والمقلاني ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

٢ - انظر المزهر : ١ / ٤٨٢ وفقه اللغة لشعلاني ٥٧٨ ، ودراسات في فقه اللغة ص ٢٤٤ ، ٢٥٩ ، ٢٥٨ ، وانظر العربية الفصحى الحديثة ص ١١٨ .

٤ - ٢ : ويتابع الخليل حديثه عن الكلمة الرباعية في اللغة فيقفنا على خاصية صوتية بارزة تتميز بها الكلمة الرباعية وتشاركها نفس الخاصية - كما سيأتي - الكلمة الخامسة يقول الخليل « فإذا ورد عليك كلمة رباعية أو خماسية ممّرة من حروف الذلق أو الشفوية ، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف أو آثار أو فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ، ليست من كلام العرب ، لأنك لست واجداً من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحد أو آثار أو أكثر (١) » .

ويضيف إلى ذلك ملخصاً يحصل بنفس الظاهرة ونفس البناء فيقول : « وأما الرباعي المنبسط فإن الجمهور الأعظم منه لا يعرى من الحروف الذلق أو من بعضها إلا كلمات نحواً من عشر جهن شواذ . ومن هذه الكلمات : المسجد ، والقسطنطين والقداحس والدعشوة ، والهدعة ، والزهقة وهي مفسرة في أمكتتها (٢) » .

من التصين السابقين نتعرف على تقرير علمي ميداني عن المادة الرباعية في اللغة العربية وهو كلام يحتاج إلى وقفة هادئة كما يحتاج إلى تحقق من صدق النتائج التي وصل إليها فمنه نعرف ما يلى :

- أن النتيجة التي وصل إليها هي من متابعة الكلمة المنطوقة في اللغة (لست واحداً من يسمع من كلام العرب) وهو سبق منهجه في الاعتماد على اللغة الحية شفاهة وليس الأمر وصفاً لكلمات مروية أو مكتوبة ، إنه يحيلنا إلى الواقع اللغوي المستعمل بالفعل لتحقق من صدق النتيجة التي وصل إليها .

- أن العربي له طريقة خاصة في بناء كلماته ، وقد تكيف جهازه النطقي على تحمل من الأداء الفسيولوجي يجعل هذا الجهاز يصدر الأصوات بطريقة خاصة ، كما أن له خصوصية في اختيار سلاسل صوتية معينة في كلماته يمكن تمييزها

١- ع : ٥٢ / ١ .

٢- ع : ٥٢ / ١ .

والتعرف عليها . وهذا الفهم الخليلي رائد في إدراك خصوصية اللغة التي هي انعكاس لخصوصية المجتمع الذي يتمسّى إليه ، والفكر الذي يعبر عنه كذلك ، فكما أن لكل مجتمع عاداته وتقاليده وأعرافه وأدابه الاجتماعية التي تميّز مجتمعاً من مجتمع آخر ، فإن في اللغة التي هي من بنات الاجتماع البشري نفس الخصوصية المستقلة ، وذات البصمة اللغوية المتميزة التي هي صدى للاستقلال والتميز المعرفي لشعب دون شعب ، ولا بد أن يظهر ذلك على تفاوت في مدى الوضوح - على كل مسارات التحليل اللغوي ابتداءً من المستوى الصوتي فالمعجمي فالصرفي فالنحو فالدلالي ، ويرتبط على ذلك أنه يمكن اعتبار اللغة في ضوء هذا « فهرساً لحضارة المجتمع المعين » ، تتأثر به وتؤثر فيه بحيث يصبح الفصل بينهما أمراً متعدراً (١) .

- أن الاعتماد على وجود سلاسل صوتية معينة كثيرة التردد في بنية الكلمة ، وسلاسل معينة هابطة أو منخفضة نسبياً ، أو عدم وجود سلاسل معينة أو مقاطع صوتية بعينها هو إجراء فحصي يدخل في إطار القياس الكمي للكلام لاكتشاف خواص معينة به يسوق التحليل لهذا اللون من أنواع الدرس الإحصائي الرياضي الذي يباهى به المحدثون ، وليس الأمر مجرد سبق في الإجراء والتصور فحسب ، بل تحن في حاجة إلى التأكيد من صحة النتائج التي انتهى إليها الخليل من خلال ما يتوفر لدينا من إحصاءات دقيقة عن طبيعة التشكيلات الصوتية المتميزة والممتنعة في مادة المعجم العربي كما تظهر في إحصاءات الصبحان واللسان . وفي الجدول التالي محاولة لتقديم تبع لترددات الأصوات الأكثر ترددًا في جنور الصبحان ثم نتبعها بجدول مماثل في جنور اللسان ، مع قراءة لنصوص الخليل ومؤشرات الدراسة الإحصائية معاً .

أولاً : الكلمة الرباعية - سلاسل صوتية عالية التردد في إحصاءات الصحاح (١).

المسلسل	صفة الحرف	الحرف	مرات التردد	النسبة المئوية (٢)	نسبة الحرف إلى الكلمة (٣)
١	الرابعة	ر	٤٤٣	١٤,٤٥٨	
٢		ل	٢٢٧	٧,٤٠٩	
٣		م	٢٢٥	٧,٣٤٣	
٤		ب	٢١٦	٧,٠٥٠	
٥		ف	١١٨	٣,٨٥١	
٦		ق	٩٧	٣,١٦٦	
	مجموع اللوائية		١٣٢٦	١٣,٢٧٦	١,٧٣١
٧	النهاية	ع	٢١٣	٦,٩٥٢	
٨		ق	١٦٣	٥,٣٢٠	
٩		د	١٦١	٥,٢٥٥	
١٠		س	١٦١	٥,٢٥٥	
	مجموع النصاعة		٦٩٨	٢٢,٧٨٢	٠,٩١١
	مجموع المشربة الكبار		٢٠٢٤	٦٦,٠٥٧	٢,٦٤٢

سبق أن أشار البحث إلى أن الخليل قد ذكر أن الكلمة الرباعية لا تخلو من حرف أو أكثر من حروف الذلقة ، وسوف يذكر بعد ذلك أصواتاً أخرى تسمع بنفس الخاصية هي المجموعة التي وصفها بالنصاعة وهي على الترتيب (ع ق د س) .

١ - إحصاءات الصحاح جدول ١ ص ٥١ لنسبة المخلور ، وجدول ١٣ ص ٧٥ لترددات ونسب المروف .

٢ - تحددت النسبة المئوية على التحو التالي :
$$\frac{\text{رات التردد} \times ١٠٠}{\text{مجموع التردد}}$$

٣ - المقصود بهذا المصطلح كمية حروف معينة إلى مجموع حروف الكلمة . وتحديد هذه النسبة على التحو التالي
$$\frac{\text{النسبة المئوية} \times ٤}{١٠٠}$$
 ورقم أربعة هو عدد حروف المخلور الرباعي .

وفي الجدول السابق المأخوذ من الدراسة الإحصائية لجذور الصحاح يتبيّن أن حروف الذلّة الستة (ر ل م ب ف ن) هي أكثر حروف الأبجدية الصوتية الخليلية ترددًا في الكلمة الرباعية التي يبلغ مجموع جذورها ٧٦٦ (١) جذراً وعدد حروفها ٣٠٦٤ حرفاً (٢)، ونسبةها إلى جملة جذور المعجم ١٣,٥٨٤٪.

ويبيّن من الجدول السابق ما يلى :

- أن مجموع تردد حروف الذلّة في الجذر الرباعي ٤٣,٢٧٦٪ من جملة ترددات جميع حروف هذا الجذر قارن الرقم ٣٠٦٤ إلى الرقم ١٣٢٦.
- أن ١,٧٣١ حرف ذلّقى من بين حروف الجذر الأربعة أى أن حرفاً وثلاثة أرباع الحرف من حروف الجذر الرباعي هي من حروف الذلّة ، وهذا يعني استحالة أن يخلو الجذر الرباعي من حرف أو أكثر من هذه الحروف .
- ذكر الخليل في موضع آخر أن الكلمة إذا عرت من حروف الذلّة يقل ورودها وتزفر في اللغة مثل دعشوقة وجلاهق « ولو لا مازمهمن من العين والقاف ما حسن على حال ، ولكن العين والقاف لاتدخلان في بناء إلا حستاه ، لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرساً ، فإذا اجتمعا أو أحدهما في بناء حسن البناء لتصاعدهما » (٣) .

وما أتعجب نصُّ الخليل حين يختار بعد حروف الذلّة العين والقاف كأصوات تتسّم بالتصاعنة أو الطلاقة أو قوله العين والقاف ولم يقل القاف والعين ، لاحظ ترتيب هذين الصوتية بعد حزمة حروف الذلّة بل لاحظ كذلك الحرية الموقعة للعين التي

- ١ - انظر إحصاءات الصحاح جدول ١ ص ٥١ .
- ٢ - هذا الرقم جاء من ضرب ٧٦٦ × ٤ وهو عدد حروف الجذر الرباعي - انظر السابق نفس الصفحة .

٣ - ع : ١ / ٥٣ .

هي أسبق الحروف وروداً في المذر الرابعى خاصة يليها القاف^(١) ، أقصد مجئ العين كحرف أول (فاء المذر الرابعى) يليه القاف كحرف ثان (عين المذر الرابعى) .

ثم يتبع الخليل رصده المدهش فيقول : عن أكثر الحروف بعد العين والقاف « فإن كان البناء اسماً لزمهه السين أو الدال مع لزوم العين أو القاف ، لأن الدال لات عن صلابة الطاء وكرازتها وارتقت عن خفوت التاء فحسنت ، وصارت حال السين من مخرج الصاد والزاي كذلك ، فمهما جاء من بناء اسم رياضي منبسط معرى من الحروف الدالق والشقوية فإنه لا يعرى من أحد حرفى الطلقة أو كليهما (يقصد العين والقاف) ومن السين والدال أو أحدهما ، ولا يضر ما خالف من سائر الحروف الصتم ، فإذا ورد عليك شيء من ذلك فانتظر ما هو من تأليف العرب وما ليس من تأليفهم نحو : قشح ونعش ودعش لا يناسب إلى عربية ولو جاء عن ثقة لم ينكر ولم نسمع به ، ولكن أفتناه ليعرف صحيح بناء كلام العرب من الدخيل^(٢) » .

تلك هي الحروف الأربعية (ع ق س د) واللافت للنظر أنه تارة يقدم فيقول السين والدال وتارة أخرى يبدأ في التعليل بالدال ثم السين وهو ما يعني تساويهما في ذلك وهذا ما تقوله الإحصاءات فهما يترددان ١٦١ مرة لكل منهما بنسبة واحدة طبعاً ٥,٢٥٥٪ والحرف الأربعية تردد في المذور الرباعية ٦٩٨ مرة بنسبة ٢٢,٧٨٢٪ وهناك قرابة حرف من هذه الأربعية (٠,٩١١ ح ك) من بين حروف المذر الرباعى .

أما مجموع العشر الكبار ، أو الأكثر ترددًا في المذر الرباعي (حروف الذلاقة وحروف النصاعة) فهو ٢٠٢٤ من مجموع حروف جذور الرباعي البالغة

١ - انظر إحصاءات الصحاح جدول رقم ص ٧٣ .

٢ - ع ١ : ٥٤ .

٣٠٦٤ بـ٥٧٦٦,٠٥٢٪ أو ٢,٦٤٢ حرف من كل أربعة حروف ، وهذا يعني أن حوالي ثلاثة أحرف إلا قليلاً من هذه الحروف العشرة تدخل في تشكيل الجذر الرباعي ، والباقي يتوزع على ١٨ حرفًا أو بقية الحروف الشامية والعشرين .

إن هذه النتائج الإحصائية التي تطابق كلام الخليل ، أو تؤكده صحته هي شهادة على أن هذه الإحصاءات دقيقة لأن أحدًا لا يعرف عن الخليل إلا أنه أذكى العرب ، وأنه كما وضع بحور الشعر فلم يخرج عنه نغم ، فها هو يعطي الإحصاءات شهادة الدقة ولا أقول تعطيه هي الشهادة على أن ما جاء به هو الصواب . وأضيف فأقول إن ذلك دليل آخر على أن هذا العمل الكبير لا يصدر إلا عن مثل الخليل .

ما سبق من قراءة المداول هو في جوانب الاتفاق فيما يتصل بالحروف العشرة الأكثر ترددًا فمما ذكر عن السلسل الشاذة التي أشار إليها الخليل في مثل قمعج ونعشج ودعشج ؟ .. بالرجوع إلى المداول ^(١) تبين ما يلى :

لم ترد كلمة رباعية تنتهي بالقطع (ثج) في إحصاءات الصحاح ، وجاء ذلك مرة واحدة في إحصاءات اللسان ، وهذا يعني أن مثل هذه الكلمات تختلف النسيج الصوتي للكلمة العربية تماماً كما قال الخليل .

أن الخليل هنا قام بنفس ما يقوم به المحدثون ^(٢) من قياس كمية الأصوات

١- راجع جدول ١٥ ص ١٨ من إحصاءات الصحاح ، وجدول ١٣ ص ٥٩ من إحصاءات اللسان .

٢- في الفصل الخامس الذي كتبه (هدسون) في كتابه المترجم إلى العربية بعنوان علم اللغة الاجتماعي ، يشير إلى أن ظهور ترددات صوتية معينة في الكلمات أو النصوص أو ظهور مقاطع صوتية معينة أو متغير صوتي معين يساعد على التمييز بين لغة ولغة أو مستوى لغوى ومستوى لغوى معين أو طبقة اجتماعية وطبقة اجتماعية أخرى ، وهو تقريباً نفس الإجراء الذي طبقه الخليل قبل ولنام لا بوف ١٩٧٢ وترودجل وماكولى ١٩٧٨ . راجع المصادر السابقة الفصل الخامس .

ووجود ترددات صوتية معينة ذات تميز واضح أو متغير صوتي معين Phonological variables لإثبات عربية الكلمة أو لمعرفة ما إذا كانت الكلمة أصلية أو دخلية وهو نفسه يشير بوضوح إلى غايتها من هذا الإجراء حين يؤكد في أكثر من موضع على أن ما يخالف قواعده ليس من كلام العرب ١ قال الليث : قلت للخليل فكيف تكون الكلمة المولدة المبدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف ؟ فقال : نحو الكشущ والخضيع والكتفعطج وأشباههن . فهذه مولدات لا تجوز في كلام العرب ، لأنها ليس فيهن شيء من حروف الذلق والشقوية فلا تقبلن منها شيئاً ، وإن أشبه لفظهم وتأليفهم ، فإن النحارير منهم ربما دخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة البس والتعمي (١) .

وكلمة مولدة في النص السابق مهمة جداً في هذا السياق لأنها تعني أن الخليل يقصد أن مواصفات الكلمة الرباعية (أو الخماسية) على ما ذكر إنما هي خاصة بالكلم العربي في فترة معينة ، وأن اللغة قد يوجد بها مولدات متخصصات بخصائص وراثية جديدة إن صبح التعبير مخالفة للخصائص الأصلية التي أوردها ، وهو أمر يمكن الالتفات إليه ، ودراسة الخصائص الجديدة للغربية للتتأكد من حجم التغيرات التي طرأت على طبيعة البنية الصوتية للكلمة العربية كما سجلها الخليل ، وطبيعة هذه البنية في فترات لاحقة . وهو أمر أتمنى أن أقوم به أو يقوم به سوائي من الباحثين ولعل من المناسب الآن أن يتقدّم البحث إلى إحصاءات اللسان للتعرف على النتائج الإحصائية لمدة أصغر ، فهل ستظل النتائج كما هي أم أن ثمة فروقاً ، وما مغزاها إن وجدت ؟ .

أما عن إحصاءات اللسان الخاصة بالجذور الرباعية فستخلص منها النتائج التالية للمجموعات الصوتية الأكثر ترددًا وذلك على النحو التالي :

١ - ع : ١ / ٥٣ ، هـ ١ / ٤٥ والأمثلة التي ذكرها مستعالج في نماذج الخماسى أقصد الكشущ وأخواتها .

٢ - راجع جدول ٣٠ ص ٩٣ لنسب الرباعي الخاصة بكلمة الرباعي ونسبتها إلى مجموع الجذور .

المسلسل	صفة الحرف	الحرف	مرات التردد (١)	النسبة المئوية (١)	نسبة الحرف إلى الكلمة	
١	ذاتية	ر	١١٠٢	% ١٠,٨١٢		
		ل	٧٩٣	% ٧,٧٨١		
		ب	٧٥٤	% ٧,٣٩٨		
		م	٦٥١	% ٦,٣٨٧		
		ن	٦٤٩	% ٦,٣٦٨		
		ف	٤١٣	% ٤,٠٥٢		
مجموع حروف الذلاقة			٤٣٦٢	% ٤٢,٧٩٨	٥ : ١,٧١١	
٢	ذاتية	ع	٦٥٨	٦,٤٥٦		
		ق	٥٧٧	٥,٦٦١		
		د	٥١٥	٥,٥٥٣		
		س	٤٦٩	٤,٦٠٢		
مجموع حروف الصدمة			٢٢١٩	% ٢١,٧٧٢	٥ : ٠,٨٧٠	
مجموع الحروف الكبار			٦٥٨١	٦٤,٥٧٠	٥ : ٢,٥٨٢	

من مراجعة إحصاءات اللسان خاصة يتبين ما يلى :

- أن مجموع جلور الرباعى تبلغ كما سبق القول ٢٥٤٨ بـ٢٧,٤٧٪ من مجموع الجنور^(٢).
- أن عدد حروف الرباعى حوالى ١٠١٩٢ حرفاً وهو ناتج ضرب عدد الجنور فى ٤ وهو عدد حروف الجنور الرباعى.
- أن عدد حروف الذلاقة فقط ٤٣٦٢ من مجموع الحروف ١٠١٩٢ بـ٠٪ ٤٢,٧٩٨.

١ - راجع جدول ٢٣ ص ٧٩ ، وجدول ٧ ص ٤٧ .

٢ - راجع جدول ٣٠ ص ٩٣ لـ٢٣ نسب الرباعى الخاصة بـكمية الرباعى ونسبةها إلى مجموع الجنور .

– أن عدد حروف النصاعة نقط ٢٢١٩ من مجموع الحروف ١٠١٩٢ بنسبة .٪ ٢١,٧٧٢

– أن مجموع حروف العشر الكبار ٦٥٨١ من مجموع الحروف ١٠١٩٢ بنسبة .٪ ٦٤,٥٧٠

وأحسب أنه من المفيد أن تقدم الإحصاءات مقارنة بين جذور الرباعي في الصحاح ونظائرها في اللسان ومنها تتبين مدى صحة الحكم العام الذي أصدره الخليل .

المسسل	البيان	الصحاح	اللسان
١	مجموع الجلور الرباعية	٧٦٦	٤٥٤٨
٢	نسبة الجلور الرباعية إلى جملة جذور المعجم	٪ ١٣,٥٨٤	٪ ٢٧,٤٧
٣	مجموع حروف الجلور الرباعية	٣٠٢٤	١٠١٩٢
٤	مجموع حروف الذلالة	١٣٢٦	٤٣٦٢
٥	مجموع حروف النصاعة (ع، ق، ح، س)	٦٩٨	٢٢١٩
٦	مجموع حروف العشرة الكبار	٢٠٢٤	٦٥٨١
٧	نسبة حروف الذلالة إلى مجموع حروف المعجم	٪ ٤٣,٢٧٦	٪ ٤٩,٧٩٨
٨	نسبة حروف النصاعة إلى مجموع حروف المعجم	٢٢,٧٨٢	٢١,٧٧٢
٩	نسبة حروف العشرة الكبار إلى مجموع حروف المعجم	٦٦,٠٥٧	٦٤,٥٧٠
١٠	نسبة حروف الذلالة في الكلمة الرباعية الواحدة	١,٧٣١	١,٧١١
١١	نسبة حروف النصاعة في الكلمة الرباعية الواحدة	٠,٩١١	٠,٨٧٠
١٢	نسبة حروف العشرة الكبار في الكلمة الرباعية الواحدة	٢,٦٤٢	٢,٥٨٢

من الجدول السابق يتتبين لنا ما يلى :

- أن الجذور الرباعية في اللسان تزيد عن ثلاثة أضعاف مثيلتها في الصحاح .
- برغم الفارق الهائل في الكلم فإن النسب تكاد تتطابق بين المعجمين مما يؤكد أن التطابق هو ظاهرة لغوية مطردة وثابتة في الجذور الرباعي في اللغة العربية .

- نسبة حروف الذلقة في المعجمين واحدة تقريرياً وهي ٤٣٪ من جملة حروف الرباعي .
- نسب حروف النصاعة تقل في اللسان عن مثيلتها في الصحاح ١٪ فقط .
- نسبة الحروف العشرة إلى جملة حروف الكلمة الرباعية تقل في اللسان عن الصحاح نحو $\frac{1}{7} \text{, } ٥٥\%$.
- أما كمية الحروف العشرة إلى جملة حروف الكلمة الرباعية فهي تقريرياً متطابقة ٢٦ حرفاً من بين كل أربعة أحرف .

والسؤال الآن هل جاء الكمبيوتر بحقيقة جديدة تختلف ما نصّ عليه الخليل فيما يتصل بالبنية الصوتية للكلمة الرباعية في اللغة ؟ .

الجواب أنه فيما يحصل بالحروف السابقة أو العشرة الكبار لا خلاف بين ما نصّ عليه الخليل وما انتهت إليه إحصاءات الكمبيوتر ، لكن ماذا عن بقية أحرف العربية ، هل جاء في كلام الخليل من الأحكام المطردة ما يسمح بالتحقق من ملاحظاته المنهجية عن طبيعة البنية الصوتية للكلمة ؟ .

هناك لختان خلا ما سبقت الإشارة إليه يجمل لا يفوت البحث تسجيلهما بوصفهما حكمين آخرين مطربدين . أما الحكم الأول فهو متصل بالهاء ، وهى الحرف الذى خصه الخليل بالذكر بعد حديثه عن العشرة الكبار فقال « وأمام ما كان من رباعي منبسط معرى من الحروف الذلقة حكاية مؤلفة نحو دهادق وزهراق وأشباهه فإن الهاء والدال المشابهتين مع لزوم العين والكاف مستحسن ، وإنما استحسنوا الهاء فى هذا الضرب لطينها وهشاشتها وإنما هى نفس لا اعتراض فيها » .

وإذا كانت الحكاية المؤلفة غير معراة من الحروف الذلقة فلن يضر كانت فيها الهاء أولاً نحو الغططمطمة وأشباهها ، ولا تكون الحكاية مؤلفة حتى يكون حرف

صدرها مواقعاً لحرف صدر ما ضم إليها في عجزها ، فكأنهم ضموا (ده) إلى (دق) فال فهوهما ، ولو لا ما جاء فيهما من تشابه الحرفين ما حسنت الحكاية فيهما لأن الحكايات الرباعيات لا تخلو من أن تكون مؤلفة أو مضاعفة ، فاما المؤلفة فعلى ما وصفت لك وهو نزر قليل ، ولو كان الهمخ من الحكاية لجائز في بناء تأليف العرب ، وإن كانت الآباء بعد العين ، لأن الحكاية تحتمل من بناء التأليف مالا يحتمل غيرها بما يريدون من بيان الحكى ، ولكن لما كان الهمخ فيما ذكر بعضهم اسماً خاصاً ، ولم يكن بالمعروف عند أكثرهم ، وعند أهل البصر والعلم منهم رد ولم يقبل^(١) .

من النص السابق نفهم الأمور التالية :

ـ أن الهاء صوت يحسن في الكلمات التي جاءت في شكل (حكاية مؤلفة) ومثل لذلك بكلمتي : دهاد وزهراق . وفسر الحكاية المؤلفة بقوله أن « يكون حرف صدرها مواقعاً لحرف صدر ما ضم إليها في عجزها ، فكأنهم ضموا (د) إلى (دق) فال فهوهما ، ولو لا ما جاء فيهما من تشابه الحرفين ما حسنت الحكاية فيهما » .

وهذا يعني أن الهاء إذا ألفت على هذا التحول مع أصوات متشابهة كالدال وركبت مع أحرف نصاعة كالقاف أو العين شاع ذلك واستحسنوه . وقد عدت إلى جداول الثنائيات وهي التي تشير إلى أكثر الأصوات تركباً مع غيره في شكل ثنائي فووجدت أن أعلى الثنائيات هي المركبة من المروف العشرة الكبار فيجي الثنائي (بر) ^(٢) أعلى ثانى في الجذر الرباعية ويأتي ١٢٧ مرة في كل الواقع ، كما يأتي الثنائي (قر) ٦٥ مرة في أول الجذر الرباعى ، وال الثنائي (نب) ٧٨ مرة في منتصف الجذر ، وال الثنائي (بل) ٤٨ مرة في آخر الجذر ، وتمثل كل من هذه

ـ ١- انظر ع : ١٥٤ - ٥٥ .

ـ ٢- انظر إحصاءات اللسان جلول ١٤ ص ٦١ .

الثنائيات أقوى ثانيةً في موضعه (١) .

أما الهاء فهي تأتي في ثانية (هـ) ٥٥ مرة والثانية (هـ) ٤٦ مرة والثانية (هل) ٣٨ مرة والثانية (هد) ٣٧ مرة وهي نسب عالية ويلاحظ أنها كلها مع حروف من العشرة الكبار ، فلماً موقع الهاء التي تحسن في الحكایة المؤلفة من هذه الثنائيات ؟ إن الهاء تظهر كحرف تالي مباشرة للحروف العشرة الكبار ، ويظهر ذلك من خلال الجدول التالي (٢) :

مسلسل	الحرف	حرف أول	حرف ثان	ثنائيات التابع التي يرد فيها	النسبة المئوية لعدد الثنائيات تتابعة
١	ر	١٦٧٤	٢٠٣٣	٣٧٠٧	% ٨,٦٣٤
٢	ن	١٣٣٥	١٤٤٨	٢٧٨٣	٦,٤٨٢
٣	ل	١١٤٥	١٦٠٨	٢٧٥٣	٦,٤١٢
٤	ب	١٢٥٨	١٣٥١	٢٦٠٨	٦,٠٧٤
٥	م	١٠٥٣	١٤٢٧	٢٤٨٠	٥,٧٧٦
٦	ع	١١٧٢	٩٧٤	٢١٤٦	٤,٩٩٨
٧	د	٩٧٣	٩٣٣	١٩٠٦	٤,٤٣٩
٨	ق	٩٦٧	٨٨٦	١٨٥٣	٤,٣١٦
٩	ف	٨٩٠	٩٢٣	١٨١٣	٤,٢٢٣
١٠	س	٧٨٥	٨١٤	١٥٩٩	٣,٧٢٤
١١	هـ	٨٨٠	٦٥٨	١٥٣٨	٣,٥٨٢

من الجدول السابق يتبين أن الهاء هي الحرف الحادي عشر الذي يرتفع بعد العشرة الكبار في الخاصية التي أشار إليها الخليل وهي التأليف مع حروف أخرى في شكل ثنائيات يمكن أن تتألف منها الحكایة المؤلفة في مثل دهادق وزهف وغيرها ومن الجدير باللاحظة أن الثنائيات السابقة خاصة بكل ثنائيات المعجم وليس الرباعي وحده ، والحكایة المؤلفة والأغترى المضاعفة قد تكون أكثر من أربعة

١ - انظر جدول ١٤ ص ٦١ من إحصاءات اللسان وانظر السابق ص ٢٢ .

٢ - انظر جدول ٢٩ ص ٩١ من المصدر السابق .

كالنظمطممة التي أشار إليها الخليل .

اما الحكم الثاني الذي يستفاد كذلك عن لمحات الخليل عن الرباعى غير ما يتعلق بالهاء فهو ظاهرة التنافر فى تتابعات صوتية معينة ، وقد أشار فى النص السابق إلى أن الحكاية المؤلفة قد تغير ما لا يقبل فى الظروف العادلة « لأن الحكاية تحمل من بناء التأليف ما لا يتحمل غيرها » ومن هذه المتنافات، التي لا تتردد فى الكلمة العربية .

أ - الحاء بعد العين .

ب - العين بعد الهاء .

ج - العين بعد الحاء (١) .

وكل ذلك يتمثل فى نموذج (هممح) . غير أن إشارة الخليل أوسع من مثال هممح بحيث تمثل شكلاً من أشكال التقنين اللغوى لتناور الحروف فى الكلمة العربية . لأنه يربطها بآلية النطق الخاصة بالعربية تلك الآلية التي لا تسمح بتتابعات صوتية معينة « ألا ترى أن الضاد والكاف إذا ألقا فبدئ بالضاد فقيل « ضك » كان تأليفاً لم يحسن فى أبجية الأسماء والأفعال إلا مفصولاً بين حرف لازم أو أكثر من ذلك الضنك والضحلاء وأشباه ذلك وهو جائز فى المضاعف نحو الضشكضاكة من النساء ، فالمضاعف جائز فيه كل غث وسمين من الفصول والأعجاز والصدور (٢) » .

وكما رأينا ابن جنى وسواه يتلقون بعض لمحات الخليل ، فإن البلاغيين قد

١ - بمراجعة إحصاءات اللسان وجدت أن الحاء بعدها عين غير موجود في المعجم جدول ١١ ص ٥٥ و أن العين بعدها حاء غير موجود كذلك السابق نفس الصفحة ، وأن الهاء بعدها عين غير موجود أيضاً السابق نفس الصفحة .

٢ - ع ٥٦ / ١ .

لحواء ملاحظة الخليل وقاموا بتوظيفها في حديثهم عن شروط الفصاحة في الكلمة^(١) ، غير أن ثمة فرقاً بين كلام الخليل اللغوي العام ، وبين توظيف البلاغيين للظاهرة ، فكلام البلاغيين يرجع عدم فصاحة الكلمة في بعض جوانبها إلى سوء ترتيب حروف الكلمة ، على حين أن كلام الخليل لا صلة بالحسن والقبح في التأليف ولا بالفصاحة أو عدم الفصاحة في الترتيب ، بل هو حديث عن التركيب الذي لا يستسيقه العربي بوجه عام في بناء كلماته ، بحيث لو جاءت الكلمة طبقاً لهذا النسق حكمنا على الكلمة بأنها ليست من كلمتهم ، إنه حكم يحصل بمحض انتظام العملية النطقية عند العرب ، وأية الطقط التي تجعله يكثر مما يستسهله نطقاً ، ويقل مما يسرع عليه نطقاً ، الأمر الذي مكن لغورياً كالخليل أن ميز بين ما هو من كلمتهم وما ليس منه . فالعربي حين يجد صوتين يعسر على جهازه النطقي أن يجمع بينهما يلجأ لآلية جديدة هي لإنجاد فاصل بحرف أو حرفين للتخلص من التناقض الذي يستقله جهازه النطقي أو السمعي ، وعلى ذلك نجد أنه يتعامل مع « ضنك » فبدلاً من الضاد والكاف اللذين يكادان يتصادعان يقول ضنك أو ضشك ، هذا هو المخرج ، لكن العرف في الحكاية المضاغعة يجد أنها قامت بفض الخصم وحدها دون حاجة إلى فاصل وذلك في مثل قولنا : ضنك حبقطق وقضقض وغيثها مما أجازه العربي وقتاً لآلية المضاغعة التي أشار إليها الخليل وعرضنا لها في ثانياً البحث من قبل . وأحسب أن تكرار المقطع المركب من صوتين متناقرين هذا التكرار يحدث تجنيساً صوتياً في الكلمة يدغدغ التناقض المشار إليه في كل مقطع الأمر الذي يجعل المخضونة في النطق ويدهش السماحة التي كانت تحسها الأذن قبل المضاغعة ، وهذا هو ما جعل هذا النوع يقبل مالا يقبله غيره من المتناقضات أو كما عبر عن ذلك الخليل « فالمضاغع جائز فيه كل غث وسمين من الفصول والأعجاز والصدور » .

١ - انظر دلائل الاعجاز ص ٣٦ وانظر علوم البلاغة ص ١٧ .

٥ - ١ : الخامس :

جاء كلام الخليل عن الخامس مختلطًا بحديثه عن الرباعي في أكثر من موضع بحيث يمكن القول : إن أكثر الأحكام التي عرض لها فيما يخص الرباعي تنسب على الخامس وتنطبق عليه ، ويظهر الخامس في نماذج أخرى من كلام الخليل مستقلاً بالحديث مما يعني أنه قد ينفرد وحده ببعض الأحكام .

فبعد أن ذكر أن الكلم في العربية مبني على أربعة أحتفاف ، قال فيما يخص الخامس من حيث أنواعه « والخامس من الأفعال نحو اسحننك (١) واقصر ، واسحنفر واسبكر مبني على خمسة أحرف ، ومن الأسماء نحو سفرجل وهرجل وشمردل وكنهيل وقرقبل وعنقنبل وقبصر وشبهه » .

ومن النص السابق نفهم :

أن الكلمة الخامسة تأتي فعلاً ، وتأتي أسماء ، وهو قول ينفرد به الخليل تقريباً إذ إن الصرفين يرون أن الخامس لا يكون فعلاً البتة ، وسنعود إلى هذا الخلاف بشيء من التفصيل في الفصل الخامس من هذا البحث . وقد مثل للفعل بأربعة أمثلة على حين مثل للاسم بسبعة وهو رقم يعني في كلام العرب الكثرة المطلقة ، فكان الخامس عنده أكثره من الأسماء وليس جمعيه كما ذهب الصرفيون .

٥ - ٢ : ثم أضاف الخليل مفسراً طبيعة الأمثلة التي أوردها للخامس فقال : « والألف التي في اسحننك واقصرأ واسحنفر واسبكر ليست من أصل البناء ، وإنما أدخلت هذه الألفات في هذه الأفعال وأمثالها لتكون الألف عماداً وسلاماً للسان إلى حرف البناء لأن اللسان لا ينطق بالساكن من المحرف فيحتاج إلى ألف وصل اعلم أن الراء في اقشعر واسبكر هما راءان أدغمت واحدة في الأخرى ،

١ = انظر العين ١٤٨ والتهنيب ١٤٢ ، وقد وضع Haywood الكلمة اسمها كل ishankaka بدلاً من - اسحننك ismankala ، ونماذج هذه الأعطاء عنده كثيرة انظر

والتشدید علامة الإدغام ^(١٤) .

والخليل في النص السابق يقينا على الأمور التالية :

أن الكلمة الخامسة قد تأتي مبدوعة بهمزة وصل (أو ألف وصل كما قال) مزبدة وأن العربي إنما تأتي بهذه الهمزة ليتخلص من خاصية نطقية لا يستسيغها ولم يتكيف عليها جهازه النطقي وهي النطق بالساكن في أول الكلمة ، فكان مجيبة بالهمزة في أول الكلمة هو تحليلاً من هذه المادة التي لا يتألفها الأمر الذي به يتمكن من نطق الكلمة كما اعتاد أن ينطق . وهو كلام صريح على أنه يدرك أن هذه الألف (أو الهمزة) في أول الكلمة ليست من أصل البناء وإنما هي صوت مغلوب لتسهيل النطق ، ويسقط في الوصل حيث لا ضرورة .

أن الكلمة الخماسية قد تأتي مشددة اللام مثل اقْسَمْرُ وَاسْبَكْرُ ، وَاسْبِطَرُ وَغَيْرُهَا وليست اللام في هذه الأمثلة ، إلا حرفان أدعُم أحدهما في الآخر . ويفهم من كلام المخليل ضمناً أن الرابعين في هذه الأمثلة أصلان وليست إحداهما أصلية والأخرى مزيدة كما يذهب الصرفيون . وسنعالج ذلك في موضع آخر من البحث .

٥ - ٣ : والكلمة عند الخليل لا يمكن أن تأتي في العربية مبنية في الأصل على أكثر من خمسة أحرف ^١ فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو اسم فاعلم أنها زائدة على الفاء وليس من أصل الكلمة ، مثل قرعبلانة إنما أصل بنائها : قرعبل ، ومثل عنكبوت إنما أصل بنائها عنكب ^(٢) .

وكلام الخليل في النص السابق يطرح فكرتين أساستين :

الأولى : أنه ليست هناك كلمات عربية بناؤها الأصلي على أكثر من خمسة

١- السابق : نفس ، الصفحة و التي ، تليها :

٢ - السابعة، ١/٤٩

أحرف وهى فرضية علمية تدعى إحصاءات الصحاح واللسان ، فطبقاً للإحصاءات اللسان ليس هناك أكثر من ١٦ كلمة تزيد عن خمسة أحرف ، أغلبظن أنها من أصل غير عربى كما تقول الدراسة الإحصائية ^(١) .

الثانية : أن الخليل ألمع إلى فكرة الأصل والفرع ، فقرعيلى هي أصل وقرعلاة فرع ، وعنكب أصل وعنكب فرع ، وهى فرضية منهجية سيكون لها فى التفكير اللغوى عند العرب أبعاد ذات شأن فى فهم النظام اللغوى والتعميد له .

٥ - ٤ - ١ : ثم أورد الخليل بعد ذلك بعض المخواص التي يشتراك فيها الخامس مع الرباعى ، من ذلك ارتفاع نسبة تردد الأصوات الندولقية « فلما ذلت المروف الستة ، ومذل بهن اللسان وسهلت عليه فى النطق كثرت فى أبنية الكلام ، فليس شيء من بناء الخامس العام يمرى منها أو بعضها ^(٢) ثم أضاف

١ - إحصاءات اللسان ص ٩ .

٤ - ٥ / ١ - ع : كتاب العين وموقعه فى آثار المراسين » وهو بحث مخطوط القah أستاذنا الدكتور كمال بشر على طلاب الفرقة الثانية ١٩٧١ - ١٩٧٢ م . وقد حظى مصطلح « الذلقة » بعرض مستفيض فى هذا البحث . وقد عرض المصطلحات الأصوات الذلق الذلقة والذلقية عند الخليل وعند خالقية ومنه يتضح أن الخليل كان يستخدم هذه المصطلحات تارة يعنى خاص غيراد بها ثلاثة الأصوات التي تخرج من ذلك اللسان أو طرفه وهى الراء والتون واللام ، وتارة يعنى عام غيراد بها مجموعة الأصوات الستة « م بنغل » التي تسمى بالخلفة والسهولة فى النطق وهى تتوزع عنده على مدرجين أو مخرجين ثلاثة ذلقية (الراء والتون واللام) وثلاثة شفوية هى (القاء والباء واليم) . والحقيقة أن الصفة النطقية لهذه الأصوات كانت الخاصة التي التفت إليها الخليل وركز عليها لما لها من أثر واضح فى شبيوع تلك السلسلة الصوتية فى بنية الكلمة معجياً ، فهذه المصطلحات إذن على المستوى الصوتى المعجمى مقصود بها صفة نطقية عند الخليل تتميز بها هذه المجموعة فى بنية الكلمة ، وأعني بذلك شبيوعها وبروزها الواضح فى الكلمات الرباعية والخمسية ، أما الخاصية الخفرجية فهى دلالة عارضة وجزئية فى السياق الدوى وردت فيه هذه المصطلحات .

قائلاً : فإذا ورد عليك كلمة رباعية أو خماسية معاً من الحروف الذلق أو الشفوية ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب ، لأنك لست واحداً من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر .

قال الليث : قلت فكيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوهة بشيء من هذه الحروف ؟ فقال : نحو الكشمع والخضمعج والكشمعطج وأشباهمن ، فهذه مولدات لا تجوز في كلام العرب ، لأنه ليس فيهن شيء من حروف الذلق والشفوية فلا تقبلن منها شيئاً ، وإن أشبه لفظهم وتأليفهم فإن التحذير منهم ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادةليس والتعميت^(١) .

والنص السابق هو تقرير علمي آخر يخص نتائج البحث الاستقرائي الذي قام به الخليل فيما يخص الكلمة الخماسية ، ولا يخفى أن كم الكلمة الخماسية في اللغة المحدود نسبياً قد ساعد الخليل على الوصول إلى توصيف دقيق خصائص البنية الصوتية لكلمات هذا البناء ، ويحمل في ضوء هذا التقرير أن نرجع إلى إحصاءات الصحاح واللسان لتشتت من مدى صحة النتائج التي انتهى إليها الخليل .

٤ - ٤ : وأول هذه المخواص أن الكلمة الخماسية - كالرباعية - لا تخلو من حرف أو أكثر من حروف الذلة ، وهي ملاحظة أكدت صحتها الإحصاءات بالنسبة للرباعي وأحسب أن إيراد نتائج إحصاءات الصحاح واللسان بالنسبة للكلمة الخماسية ، ومقارنة الإحصاءتين كما فعلنا مع الرباعي هو الإجراء المناسب للتأكد من سلامة ما انتهى إليه الخليل .

وذلك نتائج إحصاءات الصحاح الخاصة بالعشرة الكبار في الجنور الخامسة :

المسلسل	صفة الحرف	الحرف	مرات التردد (١)	النسبة المئوية (٢)	نسبة الحرف إلى الكلمة	
١	النحوة	ر	٢٤	١٢,٦٣٢		
		ل	١٨	٩,٤٧٤		
		ب	١٦	٨,٤٢١		
		م	١٠	٥,٢٦٣		
		ن	٩	٤,٧٣٧		
		ف	٨	٤,٢١٠		
مجموع المثلثة			٨٥	٣٩,٩٩٧	٠ : ٣,٩٩٩	
٢	النحوة	ق	١٨	٣,٩٤٧٤		
		ذ	١٦	٨,٤٢١		
		ع	١٢	٦,٣١٦		
		س	٩	٤,٧٣٧		
مجموع حروف الصدفة			٥٥	٢٨,٩٤٨	٠ : ١,٤٤٧	
مجموع العشرة الكبار			١٤٠	٦٨,٩٤٥	٠ : ٣,٤٤٦	

من المدخل السابق تسجل ما يلى :

- أن مجموع الجنور الخامسة في معجم الصحاح هي ٣٨ جذراً ونسبةها إلى جملة جنور الصحاح نحو ٦٧٤ % (١)، وعدد حروف الجنور الخامسة هي ١٩٠ حرفاً تثلل حوالي ١ % من مجموع حروف الجنور (٢).
- أن مجموع الحروف الدولية في الخامسي هي ٨٥ حرفاً من جملة حروف الخامسي ١٩٠ حرفاً بنسبة هي ٣٩,٩٩٧ % أو هناك ١,٩٩٩ من حروف الذلة من بين خمسة الأحرف التي يتكون منها الجذر الخامس.

١ - انظر إحصاءات الصحاح جدول ٢٢ ص ٩٣ .

٢ - انظر السابق ص ٣١ .

٣ - انظر السابق نفس الصفحة .

أن مجموع حروف النصاعة الأربعاء في الخماسي هي ٥٥ حرفاً من جملة الحروف ١٩٠ ببنسبة مئوية هي ٢٨,٩٤٨٪ أو هناك ١,٤٤٧ من الحروف الأربعاء من بين كل خمسة أحرف يتكون منها الخماسي .

مجموع الحروف العشر الكبار في الخماسي هي ١٤٠ حرفاً من بين مجموع الحروف الخماسي ١٩٠ ببنسبة مئوية هي ٦٨,٩٤٥٪ أو هناك ٣,٤٤٦ من الحروف العشرة من بين كل خمسة أحرف في الجذر الخماسي أو ثلاثة أحرف ونصف تقريرياً من حروف العشرة الكبار والحرف ونصف الحرف المتبقية هي متوزعة على ١٨ حرفاً (ثمانية عشر حرفاً) المتبقية من صوامت العربية . وهذه الأرقام تطابق نص الخليل « فلست واحداً في جميع كلام العرب خماسياً بناؤه بالحروف المصمتة خاصة ^(١) » و قوله في موضع آخر « ولا يضر ما خالف من سائر الحروف الصتم ^(٢) » ، والحروف الصتم عنده هي ما عدا حروف الذلالة من الحروف الخمسة والعشرين الصحاح في اللغة العربية .

فماذا عن الخماسي في إحصاءات اللسان؟ وهل خرجت عن هذه المؤشرات التي حملتها إلينا إحصاءات الصحاح؟ في الجدول التالي الجواب عن هذا السؤال .

١ - انظر التهذيب ص ١ / ٥١ .

٢ - انظر العين : ص ١ / ٥٤ .

نتائج إحصاءات اللسان الخاصة بالعشرة الكبار في المذور الخامسة :

المسلسل	حصة الحرف	الحرف	مرات التردد	النسبة المئوية	نسبة الحرف إلى الكلمة	
٦	الثانية	ن	١٠٣	١١,٠		
		ر	١٠١	١٠,٨		
		ل	٨٤	٩,٠		
		ب	٦٦	٧,١		
		م	٣٩	٤,٢		
		ف	٣٢	٣,٤		
٥ : ٢,٢٧٢		مجموع المذكورة				
٧	الثالثة	ق	٦٩	٧,٤		
		س	٥٥	٥,٩		
		د	٥١	٥,٣		
		ح	٤٩	٥,٢		
		مجموع النصاعة				
٦ : ١,١٩٢		٢٣,٨٥٠				
٥ : ٣,٤٦٥		٦٩,٣٠٤				
مجموع العشرة الكبار		٦٤٨				

من المذول السابق يتبين أن إحصاءات اللسان تكاد تطابق إحصاءات الصحاح وذلك كما يظهر من القراءة التالية للجدول .

– مجموع المذور الخامسة في إحصاءات اللسان هي ١٨٧ جذراً ونسبةها إلى جملة جذور اللسان هي ٢,٠٢ % ، أما مجموع حروف الخامسي فهي في اللسان ٩٣٥ حرفاً . (٢)

– أن الحروف الذوقية تردد ٤٢٥ مرة من جملة حروف الخامسي ٩٣٥ بنسبة ٤٥,٤٥٤ % . أى أن هناك حوالي ٢,٢٧٢ من حروف الذلقة في كل خمسة

١ - انظر التهذيب من ١ / ٥١ .

٢ - انظر العين من ١ / ٥٤ .

٣ - انظر إحصاءات اللسان من ٢٣ ، وجدول ٣٠ من ٩٣ .

أحرف يتكون منها الجذر الخماسي .

- أن حروف النصاعة تردد ٢٢٣ مرة من بين جملة حروف الخماسي ٩٣٥ بنسبة ٢٣,٨٥٠ % أي ١,١٩٢ من حروف النصاعة في كل جذر خماسي .

- وهذا يعني أن الحروف العشرة تردد ٦٤٨ مرة من بين مجموع حروف الخماسي ٩٣٥ بنسبة مشوية هي ٦٩,٣٠٤ % أو هناك ٣,٤٦٥ من الحروف المشارة والباقي وهو حوالي حرف ونصف تتشكلها الثمانية عشر حرفاً المتبقية من صوامت العربية في الجذر الخماسي ولعل هذا الكلام أن يكون ذات قيمة أكبر فيما لو وضعت إحصاءات الصحاح واللسان معاً في مقارنة تكشف عن مؤشرات هذه الحروف العشرة في الخماسي عموماً .

اللسان	الصحاح	المachine موضع المقارنة	المسلسل
١٨٧	٣٨	مجموع جلور الخماسي	١
% ٢,٠٢	% ٦٧٤	نسبة جلور الخماسي إلى جملة الجلور	٢
٩٣٥	١٩٠	مجموع حروف الخماسي	٣
٤٢٥	٨٥	مجموع النونية فقط	٤
٢٢٣	٥٥	مجموع النصاعة فقط	٥
% ٤٥,٤٥٤	% ٣٩,٩٩٧	نسبة النونية إلى جملة الحروف	٦
% ٢٣,٨٥٠	٢٨,٩٤٨	نسبة النصاعة إلى جملة الحروف	٧
٦٤٨	١٤٠	مجموع المشارة الكبار	٨
% ٦٩,٣٠٤	٦٨,٩٤٥	نسبة المشارة الكبار	٩
٥: ٢,٢٧٢	٥: ١,٩٩٩	نسبة الحروف النونية إلى حروف الجلور	١٠
٥: ١,١٩٢	٥: ١,٤٤٧	نسبة حروف النصاعة إلى حروف الكلمة	١١
٥: ٣,٤٦٥	٥: ٣,٤٤٧	نسبة العشرة الكبار إلى حروف الكلمة	١٢

تكشف المقارنة بين نتائج إحصاءات الصحاح ونظائرها في إحصاءات اللسان عن المفاهيم التالية فيما يخص الجنور الخامسة :

— أنه بالرغم من الفارق الهائل بين عدد الجنور الخامسة في المعجمين حيث تصل في الصحاح إلى ٣٨ جنراً على حين أنها تبلغ ١٨٧ في اللسان أى أكثر من أربعة أضعاف ما هو موجود في الصحاح فإن خصائص البنية الصوتية لجنور الخامسي في المعجمين تكاد تتطابق .

— فالحروف الذوائية تمثل في المتوسط حوالي ٤٠ % من نسخ الكلمة الخامسة أو بمتوسط حرفين من كل خمسة أخرى .

— أن مجموع العشرة الكبار يمثل في المتوسط حوالي ٦٩ % من نسخ الكلمة الخامسة أو بمتوسط ثلاثة أحرف ونصف من كل خمسة أحرف .

وهي نتيجة تؤكد أن خاصية كل من حروف الذلالة وحروف النصاعة هي الارتفاع الواضح في تشكيل بنية الخامسي صوتياً وهو كلام يؤكد صحة ملاحظات الخليل في هذا الصدد . ولا بد أن يكون الرجل قد سلك نفس السلوك وطبق ذات الإجراء الإحصائي للوصول إلى نفس النتيجة ، إذ يستحيل أن يكون الاتفاق في النتائج على هذا التحول من قبيل الصدفة أو هو خبط عشوائي بدون قصد . بل لا بد أن يكون عمل الخليل الرائد جهداً علمياً منضبطاً في إطار مشروع تنظيري محكم أمكن التحقق من سلامته .

٥ - ٤ - ٣ - من المفيد أن نعود لنصّ الخليل الذي جمع فيه الرباعي والخامسي معاً في حكم واحد هو اتفاقهما في ظاهرة شيوع الحروف الذوائية وشيوع حروف النصاعة ، أو شيوع العشرة الكبار عموماً ، ومن المداول السابقة كل على حدة ثبت أن الحروف العشرة تميز ببروز ظاهرة في نسخ الكلمة الرباعية والخامسية وهو ما يطابق قول الخليل « فإذا وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معرفة من حروف الذلّ أو الشفوية ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف أواثان

أو فرق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ، ليست من كلام العرب ، لأنك لست واجداً من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلّق والشفوية واحداً أو ثنان أو أكثر ^(١)

هذا الكلام قد تم التأكيد منه في الرباعي على حده ، وفي الخماسي منفرداً كذلك لكن المجمع في الحكم ، أو الإشراك يقتضي منهجياً أن توضع تائياً في الرباعي والخماسي في إحصاءات الصحاح يليزء نظائرها في إحصاءات اللسان ، الأمر الذي يبرز عليه ضم الخليل التوعين في الحكم ، لأنه قطعاً قد فعل نفس الشيء حين طرد الحكم من الرباعي إلى الخماسي ، وتلك مقارنة شاملة بين النتائجتين الخاصتين بالرباعي والخماسي معاً في إحصاءات الصحاح واللسان .

اللسان	الصحاح			الخاصة موضوع المقارنة	السلسل
الخماسي	الرباعي	الخماسي	الرباعي		
١٨٧	٢٥٤٨	٣٨	٧٦٦	مسمى المطرور	١
% ٢,٠٢	% ٢٧,٤٧	% ٠,٦٧٤	% ١٣,٥٨٤	نسبة المطرور إلى جملة حروف اللسان	٢
٩٣٥	١٠٩٢	١٩٠	٣٠٦٤	مسمى حروف المطرور	٣
٤٢٥	٤٣٦٢	٨٠	١٣٩٦	مسمى حروف اللونية	٤
٢٢٣	٢٢١٩	٥٠	٦٩٨	مسمى حروف النصاحة	٥
٦٤٨	٦٥٨١	١٤٠	٤٠٤٤	مسمى المطررة الكبار	٦
% ٤٤٥,٤٥٤	% ٤٢,٧٩٨	% ٣٩,٩٩٧	% ٤٣,٢٧٦	نسبة حروف الذلّق إلى جملة حروف المطرور	٧
% ٢٣,٨٥	% ٢١,٧٧٧	% ٢٨,٩٤٨	% ٢٢,٧٨٢	نسبة حروف النصاحة إلى جملة حروف المطرور	٨
% ٦٩,٣٠٤	% ٦٤,٥٧٠	% ٦٨,٩٤٥	% ٦٦,٠٥٧	نسبة المطررة الكبار إلى جملة حروف المطرور	٩
٥ : ٢,٢٧٧	٥ : ١,٧١١	٥ : ١,٩٩٩	٥ : ١,٧٣١	نسبة عدد حروف الذلّق إلى جملة حروف المطرور الواحد	١٠
٥ : ١,١٩٢	٥ : ٠,٧٨	٥ : ١,٤٤٧	٥ : ٠,٩١١	نسبة عدد حروف النصاحة إلى جملة حروف المطرور الواحد	١١
٥ : ٣,٤٦٥	٥ : ٢,٥٨٢	٥ : ٢,٤٤٧	٥ : ٢,٦٤٢	نسبة عدد المطررة الكبار إلى جملة حروف المطرور الواحد	١٢

من المجدول السابق يتبيّن لنا مجموّعة من المؤشرات البارزة ذات الدلالة العلمية من هذه المؤشرات :

- أن مجموّع الرباعي في الإحصائيتين أكبر من مجموّع الخماسي .
- نسبة حروف الذلّة في الرباعي في المعجمين تدور حول مستوى ٤٣٪ تقريباً . على حين أنها تصل إلى ٤٠٪ في خماسي الصباح وأكثر من ٤٥٪ في خماسي اللسان . وهو ما يعني بوجه عام أن نسبة حروف الذلّة في الرباعي أقل منها في الخماسي .
- تقل نسبة حروف النصاعة في الرباعي في المعجمين عنها في الخماسي بوجه عام .
- نسبة العشرة الكبار في الرباعي تقل عنها في الخماسي في المعجمين كذلك .

وإذا حاولنا أن نفسّر هذه الظاهرتين تفسيراً علمياً فإن السرَّ - من وجهة نظر هذا البحث - يكمن في ميكانيزم العمليّة النطقية لكل من الرباعي والخماسي ، فمن المعروف أنه كلما كثُر عدد حروف الكلمة اقتضى ذلك جهداً عضلياً فيما يتصل بفسيولوجيا جهاز النطق الأمر الذي يحتاج معه الناطق إلى اللجوء إلى تضمين مثل هذه الكلمة حروفاً أكثر من تلك الحروف التي يستسهلها في النطق ، ولما كانت المؤشرات تؤكّد أن الحروف العشرة الكبار هي التي تتمتع بخاصية السلامة في النطق والاستساغة في الأداء ، فإن العربي قد حلاً إلى تضمين الكلمة الرباعية قدرأً يخفّف من صعوبة النطق بها يوازي هذا الكم من الحروف نظراً لأن نطق الخماسي يقتضي جهداً يزيد ٢٠٪ عن نطق الرباعي ، الأمر الذي رفع نسبة العشرة الكبار في الخماسي عنها في الرباعي . ولعل ما يدعم هذا التفسير أن تقوم مقارنة نسبة العشرة الكبار في الثلاثي بنظائرها في الرباعي والخماسي ، ومن المفترض في ضوء هذا التفسير أن تقل هذه النسبة في الثلاثي عنها في الرباعي عنها في الخماسي وقد قمت

بمقارنة العشرة الكبار في هذه الأنواع الثلاثة من خلال إحصاءات اللسان . وهذا جدول يبرز هذه النسب .

الخامسى (٣)		الرابعى (٢)		الثالثى (١)		الحرف	المسلسل
نسبة التردد	عدد التردد	نسبة التردد	عدد التردد	نسبة التردد	عدد التردد		
١٠,٨	١٠١	% ١٠,٨	١١٠٢	% ٦,١٤٤	١٢٠٥	ر	١
١١	١٠٣	٦,٣٦٨	٦٤٩	٥,٧٨٧	١١٣٥	س	٢
٤,٢	٣٩	٦,٣٨٧	٦٥١	٥,٥١٦	١٠٨٢	م	٣
٩	٨٤	٧,٧٨١	٧٩٣	٥,٢٥١	١٠٣٠	ل	٤
٧,١	٦٦	٧,٣٩٨	٧٥٤	٥,١٢٤	١٠٠٥	ب	٥
٥,٢	٤٩	٦,٤٥٦	٦٥٨	٤,٤٢٥	٨٦٨	ع	٦
٣,٤	٣٢	٤,٠٥٢	٤١٣	٤,٢٨٣	٨٤٠	ف	٧
٥,٣	٥٠	٥,٥٥٣	٥١٥	٤,١٨١	٨٢٠	د	٨
٧,٤	٦٩	٥,٦٦١	٥٧٧	٤,٠٠٢	٧٨٦	ق	٩
٥,٩	٥٥	٤,٦٠٢	٤٦٩	٣,٧١٧	٧٢٩	س	١٠
٦٩,٣٠٤	٦٤٨	% ٦٤,٥٧	٦٥٨١	% ٤٨,٤٣٥	٩٥٠٠	المجموع	

من الجدول السابق يتبين لنا الحقائق التالية :

أن نسبة حروف الذلالة في الثالثى ٣٢,١٠٥ .٪ من جملة حروف الثالثى البالغة ١٩,٦١٤ على حين أن نسبة حروف الذلالة في الرابعى ٤٢,٧٩٨ .٪ من جملة حروف الرابعى البالغة ١٠١٨٤ حرفاً ، أما حروف الذلالة في الخامسى فتصل

١ - انظر إحصاءات اللسان جدول ١ ص ٣٥ .

٢ - انظر إحصاءات اللسان جدول ٧ ص ٤٧ .

٣ - انظر إحصاءات اللسان جدول ١٥ ص ٦٣ وانظر جدول ٢٣ بحثات الورود في كل نوع ص ٧٩ .

نسبتها إلى ٤٥٤٤٥٪ من جملة حروف الخامس البالغة ٩٣٥ حرفاً^(١).

- المؤشرات السابقة تعنى أن :

النولقية في الثلاثي تقل عنها في الرباعي بنحو ١٠٪.

النولقية في الثلاثي تقل عنها في الخامس بنحو ١٣٪.

- أما فيما يتصل بالعشرة الكبار فظهور مؤشرات المدول لتقول لنا ما يلى :

العشرة الكبار في الثلاثي ٤٣٥٤٨٪.

العشرة الكبار في الرباعي ٥٧٦٤٪.

العشرة الكبار في الخامس ٣٠٤٦٩٪.

- وهذا يعني ما يلى :

أن العشرة الكبار تقل في الثلاثي عنها في الرباعي بنسبة ١٣,١٦٪.

أن العشرة الكبار تقل في الثلاثي عنها في الخامس بنسبة ٦٩,٢٠٪.

وكل المؤشرات السابقة تدعم تفسيرنا القسيولوجي للظاهرة على اعتبار فكرة المجهد في الأداء حيث يقتضي الثلاثي جهداً قليلاً بالنسبة للرباعي وجهداً أقل بالنسبة للخامس ، كما أن الرباعي يقتضي جهداً كذلك أقل من الخامس . وهو ما ألجأ العربي إلى الاستعانة بهذه المجموعة السهلة في النطق بحسب تتناسب مع ما يحتاجه من جهد في كل نوع منها ، وقد سبقت الإشارة إلى أن هذا لم يفت بالخليل بل أشار إلى ذلك في عبارة علمية دقيقة قائلاً : فلما ذلت الحروف الستة

١ - تبلغ جذور الثلاثي في إحصاءات اللسان ٦٥٣٨ حرفاً، وتبلغ جذور الرباعي ٢٥٤٨ فعدد حروفها ١٠١٨٤ حرفاً، وتبلغ جذور الخامس

١٨٧ حرفاً وعدد حروفها ٩٣٥ انظر إحصاءات اللسان ص ٩٣.

ومذل بهم اللسان وسهلت عليه في النطق كثرة في أبنية الكلام ، فليس شيء من بناء الخامس التام يعرى منها أو من بعضها ^(١) ، فقوله كثرة في أبنية الكلام تشمل الثلاثي والرباعي والخمسى ، وخاص الخامس في هذه العبارة لأنه أعلىها نسبة ، وقد جمع الرباعي والخمسى في الحكم حين قال بعد ذلك « لست واحداً من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر » ^(٢) وهو ما يعني أن الرباعي تكثر فيه هذه الحروف كذلك ، ولكن الخامس أكثر من الرباعي لأنفراده أكثر من مرة بالحكم . وهو كلام يطابق الإحصاءات خطوة بخطوة ، الأمر الذي يعكس حقيقة مفادها أن الخليل قد وضع يده على أسرار البنية الصوتية للكلمة العربية في ضوء نظرية معجمية رياضية محكمة لم يعط اللثام عن صوابها إلا لغة الأرقام فما زلت أنا من حكم صناع المعاجم ؟

٦ - بين الخليل وابن منظور

بعد هذا العرض لفكرة الكمية كأساس من أسس النهج في نظرية الخليل ، وبعد أن تبين لنا دقة ما انتهى إليه ، وأمكننا التتحقق من صحة الفرضية من خلال مقارنة ما أورده الخليل بما انتهت إليه إحصاءات الكمبيوتر لأكبر معجم في العربية وهو اللسان وأصبح معاجمنا القديمة وهو الصحاح ، فإنه من المناسب أن نعود لصاحب اللسان ونقارن بين ما أورده من نتائج ونقارنها بنتائج الدراسات الإحصائية . ونخص ابن منظور هنا بالكلام ثلاثة أسباب :

الأول : أنه صاحب اللسان ، ومعجمه بوصفه أضخم معاجمنا القديمة كان أحد المعجمين الذين خضعا للدراسة الإحصائية ، وهي الدراسة التي أكملت صحة مقولات الخليل .

٢ - انظر المعن ١ / ٥٢ .

٣ - السابق نفس الصفحة .

الثاني : أن ابن منظور قد منهج الخليل مثلاً في التهذيب والمحكم نقداً لاذعاً حين قال في مقدمة معجمه « كان واضعه شرع للناس مورداً عذياً وجلدهم عنه ، وارتاد لهم مرجعاً مربعاً و منهاهم عنه ، قد آخر وقلم ، وقصد أن يعرب فاعجم فرق الذهن بين الثنائي المضاعف والمقلوب وبدد الفك باللقيف والمتعل والرباعي والخماسي فضاع المطلوب » ^(١) .

الثالث : أنه أراد أن يدللي بدلوه في الكشف عن خصائص البنية الصورية للكلمة العربية كما ظهر له من خلال مادة معجمه ، وهو بذلك قد قدم معلومات في نفس الحقل الذي جاء الخليل فيه بما سبق عرضه ، ويحمل أن نعرض النتائج التي وصل إليها على نتائج الإحصاءات التي تمت على معجمه كما سبق أن فعلنا ذلك مع نتائج الخليل .

قسم ابن منظور الحروف بحسب قوة التردد ثلاثة أقسام القسم الأول يضم سبعة أحرف ، وهي أعلى الحروف ترددًا في بنية الكلمة ، والقسم الثاني يضم أحد عشر حرفاً وهي مجموعة متوسطة في نسبة التردد ، والقسم الثالث يضم عشرة أحرف ، وهي لأقل الحروف ترددًا ، وقد أورد الدكتور على حلمي موسى مقارنة بين عمل ابن منظور ونتائج إحصاءات الكمبيوتر لمجمِّع اللسان . فجاءت المقارنة على النحو التالي ^(٢) :

الناتج	القمة الأولى	القمة الثانية	القمة الثالثة
نتائج الكمبيوتر	رل ن ب م ع ق	دف س ج ح ه ش ك ط و خ	رأت ص ث خ أى ض ذ ظ
نتائج ابن منظور	أ ل م ه و ى ن	ر ع ف ت ب ك د س ق ح ح	ظ ط خ ر ث خ ض ش ص ذ

١ - انظر مقدمة اللسان وانظر ج ١ من ٧ كذلك الصحاح ومدارس المعاجم العربية من ٧٩ ، ٨٠ .
٢ - إحصاءات اللسان ص ٢٥ .

من الجدول السابق يتبيّن لنا ما يلي :

- أنه وضع الراء وهي طبقاً لإحصاءات الكمبيوتر أقوى حروف اللغة ترداً، وضعها في الفعلة الثانية .
- وضع الباء والعين والكاف وهي من العشرة الكبار ، ومن حروف المقدمة وضعها في الفعلة الثانية كذلك .
- وضع الهمزة والياء وهما من حروف المؤخرة في إحصاءات الكمبيوتر وضعهما في الفعلة الأولى .
- وضع التي عشر حرفآ في غير فتحتها وهي « ر ، ب ، ع ، ق ، ه ، ش ، ط ، و ، خ ، أ ، ت ، ئ ». بنسبة خطأ حوالى ٤٣ % .
- قدم وأخر خمسة عشر حرفآ عن مكانها في فتحتها بنسبة اضطراب حوالى ٥٣ % .
- لم يتفق مع إحصاءات الكمبيوتر إلا في حرف واحد فقط هو حرف (اللام) حيث جاء في فتحتها وفي ترتيبه الصحيح من بقية الأصوات . بنسبة صواب ٤ % . والباقي وهو إما خطأ صراح أو مضطرب ليس في مكانه الدقيق .

وليس يعني هذا أن نغض من قدر ابن منظور فالرجل لا مشاحة راو عظيم من رواة اللغة ، وأحد فرسان الخلبة في مجال خدمة صناعة المعجم العربي ، وسيظل اللسان من أفضل معاجمنا القديمة وأوفاها مادة وأوثقها عند الباحثين ، غير أن الرجل لم يفهم صنعة الخيل لأنها ليست من قبيل صنعته ، ولم يفلح في الاقتراب من النتائج التي حققها ، لأنه أقحم نفسه في مجال ليس مجاله ، وسار في درب يختلف عن دربه ، إن الفرق بين عمل صانع المعجم كابن منظور والمنظر العجمي كالخليل كالفرق بين راوي الحديث والفقير أو بين راوي اللغة والشعر والناثر . الأول تقاس عظمته بكم ما حمل إلينا ونقل لنا إنه كالزاملة التي تحمل الأسفار

وبدونها لا يصل العلم ، والثاني تقاس عظمته بكيف ما وعى واستبط ، وكلامها
رجل عظيم في ميدانه ، وفارس في حلبة .

ما سبق يبين لنا أن حديث المخليل عن الصحيح والمائل ، والثلاثى والرباعى
والخامسى وال مضاعف وغيرها من معلومات صوتية وصرفية ليس فيه تشتيت للذهن
وتبديد للوقت وإضاعة للمطلوب كما فهم ابن منظور ، بل الأمر مخالف لذلك
 تماماً لمن يتفهم طبيعة المعالجة التى تقدم فى إطارها هذه المعلومات ، والسياق الذى
وردت فيه ، فالذى ينظر إلى النظام العجمى بوصفة أحد أنظمة اللغة ، سيد
المفاهيم السابقة هي الأسس النظرية التى يقوم عليها هذا النظام ، فالتفريق بين
الصحيح والمائل له أثر على المستوى التركيبى ولا شك أن ثمة تغيراً فى بنية الفعل
يطرأ عند الاستناد مثلاً للضمائير ، وعند خصوصية لضوابط الحالة النحوية Case
من رفع ونصب وجزم ، ويرتب على سلامة البنية الصوتية للكلمة آثار
مهمة لسلامة البنية التركيبية وتماسكها ، فالجملة ليست مجرد رصّ كلمات ، بل
رصّ كلمات معينة وفق نظام معين ، واعتبار المعجم بهذه النظرة خطوة موطنة
ومتفاعلة مع أنظمة اللغة الأخرى هي التى تفسر طرح هذه المفاهيم ومعالجة جوانب
الصحة والأعتلال ، وتفسير البنية الصوتية للكلمة للتمييز بين العربى وغير العربى
من الكلم ، وكلها من صميم المعالجة النظرية الشاملة التى تخدم بقية أنظمة
اللغة الأخرى ، وهذا هو ما يحاول تطويره المحدثون باعتبار المعالجة المجمعة خطوة
من خطوات التحليل الموطنة للدرس التركيبى ، تقتضى النظر إلى مادة اللغة لا
بوصفها وحدات شكلية فحسب بل باعتبارها وحدات ذات معنى وذات وظيفة
تركيبية معاً^(١) ، وهو ما يجعل طرح المخليل نبته فى حاجة إلى رعاية وتطوير فى
هذا الاتجاه ، وسبقاً منهجاً فى فهم الوظيفة الحقيقة للمعجم بين أنظمة اللغة
الأخرى ، لم يكن المخليل يشتت الذهن بل يواظبه ، ولم يضيّع عمله المطلوب بل
أرسى إلية ، لأن المطلوب الذى يسعى لتحقيقه يخالف المطلوب الذى يتحدث عنه
ابن منظور . فهذا فى وادٍ وذاك فى وادٍ آخر .

١ - انظر على سبيل المثال السانيات واللغة العربية من ٦٣ وما بعدها .

الفصل الرابع
الأساس التقليدي



الفصل الرابع : الأساس القليبي

١ - يمثل الأساس التقليبي الركيزة الثالثة من ركائز النهج في نظرية الخليل المعجمية ، وقد مر بنا من قبل الركيزان الأوليان ، وهما الأساس الصوتي والأساس الكمي ، ويقف هذا الأساس الثالث شاملاً كأساسية السابقين وأصيلاً ، فلا أعلم أحداً سبق الخليل في تطبيقه ، وهو أصيل عنده لأن الثابت تاريخياً هو علو كعب الخليل في هذا العلم ، ولا أريد أن أسبق بالأحكام فأصصفه بالدقه والانضباط من جانب والشمول والمحصر من جانب آخر ، مع إمكانية التتحقق من صدقه كفرضية علمية هي جزء من النظرية المعجمية الخليلية ، فذلك موضوع هذا الفصل ، الذي أترك للقارئ الكريم فرصة الحكم ، والتعرف عن كثب على طبيعة هذا الإجراء الثالث عنده .

من تبع نصوص العين تقابلنا فقرة وحيدة تتصل بهذا الأساس ، وهي على إيجازها قد حملت في طياتها عموداً أساساً من عمد النظرية ، وسوف أنقل الفقرة كاملة ، ثم أعرض لها بالبساط والتحليل .

قال الليث : قال الخليل :

اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين : قد ، دق ، شد ، دش ، والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه وتسمى مسدوسة ، وهي نحو ضرب ، صنبر ، برض بضر ، رضب ، ريض . والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجهأً وذلك أن حروفها وهي أربعة أحرف تتصرف في وجوه الثلاثي الصحيح وهي ستة أوجه فتصنف أربعة وعشرين وجهأً ، يكتب مستعملها ويبلغى مهمتها وذلك نحو عبقر تقول منه :

عقرب ، عبرق ، عقير ، عبقر ، عرق / قعرب ، قبعر ، قبرع ، قرعب ، قربيع / رعقب ، رعيق ، رقعب ، رقبع ، ربعق / بعقر ، بعرق ، بقعر ،

بقرع ، برعق ، برقع (١) .

والكلمة الخامسة تتصرف على مائة وعشرين وجهاً وذلك أن حروفها وهي خمسة تتصرف في وجوه الرباعي ، وهي أربعة وعشرون حرفاً فيصيغ مائة وعشرين وجهاً ، يستعمل أقله ويبلغ أكثره وهي نحو :

سفرجل ، سفرلچ ، سفرل ، سجفل ، سجلف ، سجلف ، سلجرف ،
سلرج ، سلرج ، سجفلر ، سرفلچ ، سجفل ، سلجر ، سجلف ، سجلف ،
سرجلف ، سجلفر وهكذا (٢).

والنص السابق هو موضوع البحث في هذا الفصل ، إنَّه يحمل في طياته على قصره وأحداً من أخطر عناصر المنهج في النظرية المعجمية خاصة والنظرية اللغوية العربية بوجه عام . وإذا كان البحث سيُعنى في هذا المقام بعرض هذا الأساس في إطار النظرية المعجمية ، فإن دراسة أخرى يجب أن تتوفر على فهم هذا الأساس في إطار النظرية اللغوية العربية عامة والتحويم على وجه المخصوص .

١- هكذا جاء تصريف الرابعى فى نص العين ١ / ٥٩ ومجموع هذه الصور ثلاث وعشرون صورة ، وينقص من هذه الصور كلامه قبر . وقد ذكرت الصور كاملة فى نص التهذيب ١ / ٤٩ . ويلاحظ كذلك أن ترتيب نص العين المشار إليه أعلاه فيه خلل فى ترتيب الصيغ فمن المفروض أن تأتى كل صورتين متماثلتين فى الحرف الأول ، والثانى متسالبين وبناء على ذلك كان يجب فى المجموعة الأولى أن يقال عقرب قبر - ثم عريق عقرب ، وهكذا ولكن قال عريق قبل عقرب . وقد جاء نص التهذيب فى هذه النقطة سليماً . ولكن نص التهذيب أورد خطأ مماثلاً فى المجموعة الثانية وخطأ مماثلاً فى المجموعة الرابعة أشار إلىهما الحق انظر التهذيب ١ / ٤٩ .

٢- العين ١ / ٥٩ وانظر التهذيب ١ / ٤٩ .

٢ - أما عن حديثه عن الثنائي فأحبح أن أقف عند قوله : (تصریف) .
 والتصریف في اللغة التغیر ، وتغیر الكلمة على أوجهها الإیان بالأشکال
 المختلفة منها ، ويلفت النظر أن الخلیل استعمل مصطلحاً لغرياً ، مع أن الفكرة
 ریاضیة ، كما أن الخلیل لم يستعمل في هذا السیاق خاصة لفظ تقلیب ، وهو
 المصطلح الذي شاع إطلاقه على عملية التصریف أو التغیر ، غير أن الكلمة
 تقلیب قد وردت في موضع آخر من نص العین ، ولكنها جاءت حينئذی بمعنى
 آخر ، قال الليث : « وقلب الخلیل ١ ، ت ث فو ضعها على قدر مخرجها من
 الخلق (١) » وهو هنا يقصد بها أنه ذاقتها أو تحسسها ثم أدارها على مخارجها
 فوضع كل حرف منها في مدرجها أو مخرجها . ومع ذلك فإن المصطلح تقلیب
 قد شاع منذ ظهر العین بين الدارسين ، وقد شرح ابن درید المقصود به في
 معجمه (٢) ، وكانوا حين يمثلون لظاهرة التقلیب يقولون مثلاً : قع وملویها
 عن إشارة إلى أن هذا الاصطلاح كان مقصوداً به الإیان بمقلوب الكلمة أو
 مقلوباتها أو تقالیبها أو تصاریفها .

والذی يعني من المصطلح الخلیل في النص السابق وهو الكلمة (تصریف)
 أن فيه إشارة إلى وجود صلة ما بين الصور المختلفة للكلمة ، وهو أمر سيكون له أثر
 فيما بعد حين أرخت هذه الفكرة إلى عدد من اللغويین كابن فارس في مجمله
 ومقاييسه وابن جنی في خصائصه بمحاولات البحث عن هذه الصلة التي لم يفصح
 عنها الخلیل ، فكان أن ولدت فكرة الأصول التي حاولت ربط هذه التقالیب بمعنى
 واحد (٣) .

١ - انظر العین ص ٤٨ والتهذیب ص ١ / ٤١ .

٢ - الممثرة ج ٣ / ٥١٣ .

٣ - ذهب الدكتور وافي إلى أن فكرة الأصول هي فكرة الخلیل وأکفى الدكتور أنس والدکتور
 رمضان عبد التواب بالقول بأنها هي التي أورثت إليهم بذلك . انظر فقه اللغة ١٩٣

٢٨٣ ، ومن أسرار اللغة ص ٥٨ وفصل في فقه اللغة ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

والتصريف كما شاع بعد ذلك لم يكن مجرد علاقة شكلية فحسب بل هو علاقة معنوية كذلك ، وليس في استخدام الخليل لمصطلح التصريف ما يمنع أنه رأى وجود علاقة في المبني والمعنى بين صور أو مقلوبات الكلمة المختلفة ، بدليل وضعه المقلوبات المستعملة كلها في مكان واحد ، ولابد أن وراء هذا الضم معاً في مكان واحد هدفاً غير الاشتراك في البنية ، وتکاد طريقة الخليل أن تكون الطريقة المسيطرة في شرح المادة المعجمية حين يأتي بالكلمة وتصريفاتها على شاكلة ضرب بضرب ضرباً فهو ضارب ومضروب ... الخ وإذا كان جمع الصيغة الصرفية على هذا النحو هو بالقطع لغاية دلالية ، فلا يمنع أن يكون جمع المقلوبات المختلفة للكلمة في مكان واحد هو نهاية دلالية كذلك . غير أن الخليل عندي لا يسأل عن كثير من الاعتساف الذي شاب بعض معالجات ابن فارس وأبن جنى ومن لف لفهم ، حتى طرح كثير من الباحثين الفكرة كافية وعلوا البحث عن جامع دلالي بين مقلوبات الكلمة مجرد شطحة من شطحات هؤلاء اللغريين ووهم كبير أوقعهم فيه الافتتان بلغة العرب^(١) .

٢ - ٢ أما عن فكرة التقاليب الخليلية كما تظاهر من النص السابق فهي فكرة رياضية خالصة للخليل فضل توظيفها في المجال اللغوي ، التماساً للدقة ، وهو بهذا أسبق من المحدثين ، بل ربما كان أول لغوي معروف لنا حاول ذلك . وتقوم الفكرة على أساس حصر الإمكانيات الرياضية لضرب رقم في آخر ، أو ما يسمى في الرياضيات بمضروب العدد ، وذلك على النحو التالي :

$$2 = 2 \times 1$$

$$6 = 3 \times 2 \times 1$$

$$24 = 4 \times 3 \times 2 \times 1$$

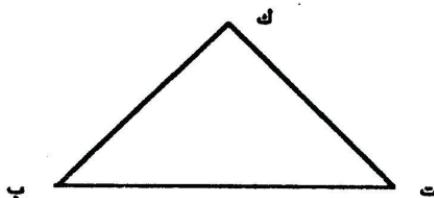
$$120 = 5 \times 4 \times 3 \times 2 \times 1$$

١ - وسوف يعود البحث إلى هذه النقطة في الفصل الأخير بشيء من التفصيل .

وهذا يعني على المستوى اللغوى أن الاحتمالات الرياضية الممكنة لعقلية الكلمة مكونة من حرفين هو توليد كلمتين مثل قد - دق ، ثند - دش .. الخ . وقد استخدم الخليل نفسه مصطلح (ضرب) وقال (تضرب) وهو ما يدلنا على المقلوب الرياضى الذى منهأتى بفكerte .

ولا يخفى أن فكرة المسكن رياضياً تخدم الخليل فى جانبين الأول هو حصر مادة اللغة حصرأً تاماً ، فلا يفوته منها شيء ، والثانى ضم الصور المستعملة والمتماثلة فى الشكل فى موضع واحد ، وهو ما يخدم الباحثين فى نظرية المعجم فى الكشف عن أسرار البنية ، سواء معرفة ما تؤثره اللغة من مبان و ما لا تؤثره ، أم فى إمكان الكشف عن صلات هذه الصور دلائلاً ، أم التعرف على طبيعة الفجوات المجمعة وإمكان الاستفادة منها . إلى غير ذلك من غايات . ربما يكشف البحث العلمى عنها وهو يبحث عن مناهج أخرى لإعادة ترتيب مادة المعجم على أساس تركيبى أو حقلى أو صوتى . أو دلائى تركيبى ... الخ .

٢ - ٣ - وفي ضوء الفكرة السابقة فإن الكلمة الثلاثية لا تسمح باعطائنا أكثر من ٦ مقلوبات أو صور طبقاً لإمكاناتها الرياضية ، وقد التمس ابن دريد من الرياضيات الوسيلة الرياضية لشرح الفكرة فرسم لنا مثلثاً ووضع على كل زاوية حرفًا من حروف الكلمة الثلاثة على النحو التالي (١) في الكلمة (كتب) .



١ - انظر المجمحة من ٣ / ١٣٥ ومثال كتب من وضع البحث . جاء الرسم فى المجمحة فى شكل دائرة على النحو资料 .

وبحسب كلام الخليل فيمكن أن نبدأ بالكاف ثم نبدأ بالباء ثم نبدأ بالباء فتتحول لدينا الصور التالية .

١ - أن نبدأ بالكاف فتحصل على صورتين : ككب - كبت .

٢ - أن نبدأ بالباء فتحصل على صورتين : تكب - تبت .

٣ - أن نبدأ بالباء فتحصل على صورتين : بكت - ببت .

ويسمى الخليل هذه الكلمة بالمسدودة أو ذات الصور الستة .

٤ - أما الرابعى في ضوء الفكرة الخليلية فامكانته الرياضية ٤ صورة ، ويمكن تصور هذه الإمكانتات - استكمالاً لصنيع ابن دريد - من خلال مربع ، على النحو التالي (١) :



وفي المزهر جاء الرسم في شكل مثلث ، انظر المزهر ١ / ٧١

١ - شرحت هذا التصور ص ٢٧ - ٢٩ في مذكرات مخطوطه ألقبها على طلابي بدار العلوم سنة ١٩٨٥ م وقد ترأت للدكتور عبد الصبور شاهين والدكتور أحمد مختار ما يفيد أن المرحوم الدكتور محمد سالم المحرر قد تصور الفكرة على نحو قريب مما قدمته ، وإن كنت لم أقرأ شيئاً لأستاذنا المحرر ، وعمله على ما يليه كان محاضرات مخطوطه غير منشورة انظر المعاجم العربية ، محاضرات مخطوطه للدكتور عبد الصبور ألقبها على علاب الفرقه الثانية بدار العلوم سنة ١٩٧١ - ١٩٧٢ ص ١١ وانظر البحث اللغوى عند

العرب ص ١٧٢ .

شكل ١ لقلوبات درج

الرقم	الصورة	٤	٣	٢	١
١	درج				
٢	درج				
٣	درج				
٤	درج				
٥	درج				
٦	درج				

شكل ٢ لقلوبات درج

الرقم	الصورة	٤	٣	٢	١
٧	درج				
٨	درج				
٩	درج				
١٠	درج				
١١	درج				
١٢	درج				

شكل ٣ لملفوبيات دحرج

الرقم	الصورة	٤	٣	٢	١
١٣	رحدج				
١٤	رحدجد				
١٥	ردمج				
١٦	ردمج				
١٧	رحدجد				
١٨	رحدج				

شكل ٤ لملفوبيات دحرج

الرقم	الصورة	٤	٣	٢	١
١٩	جرحد				
٢٠	جردح				
٢١	جحدر				
٢٢	جحدر				
٢٣	جدرح				
٢٤	جدرح				
٢٥					مجموع صور

من المذول السابق يتبعنا فيما يتصل بالكلمة الرباعية ما يلى :

- ١ - أن هناك أربع مجموعات من الكلمات : المجموعة الأولى تبدأ كلماتها بـ (ت) بالحرف (د) والمجموعة الثانية تبدأ كلماتها بالحرف (ح) والمجموعة الثالثة تبدأ كلماتها بالحرف (ر) والمجموعة الأخيرة تبدأ كلماتها بالحرف (ج) . وهذا يعني أن القاسم المشترك بين كل سبعة كلمات هو حرف واحد من أربعة أحرف أو ٢٥٪ من حروف الكلمة .
- ٢ - أن كل مجموعة من المجموعات الأربع تنقسم ثلاثة ثنايات ، كل ثنائي ينتمي في الحرفين الأولين فمثلا المجموعة الأولى ثناياتها على النحو التالي :

تشترك في الثنائي (دح) في أول الكلمة .	دحرج - دحجر
تشترك في الثنائي (در) في أول الكلمة .	درجح - درجع
تشترك في الثنائي (دج) في أول الكلمة .	دحجر - دجرح

وهذا يعني أن كل ثنائي من الكلمات تشترك كلماته في حرفين من أربعة أحرف أو ٥٠٪ من حروف الكلمة وهذا يعني أن القرابة بين كلمتين متضادتين في ٥٠٪ من حروف المذذر أقرب نسبياً من بقية الكلمات الأخرى .
- ٣ - من الفكرة الموجودة في رقم (٢) السابق يتبعنا أن هناك ١٢ زوجاً من الكلمات كل زوج يشتراك في ٥٠٪ من الحروف ويتبادل الحرفان الباقيان الواقع ، وهو ما يمكن أن نتكمّل عليه في إثبات إمكان التبادل وعدمه من جانب بشكل رياضي دقيق في نماذج الإبدال اللغوى ، كما يمكن الاتكاء على هذه الظاهرة في القول بالقرابة الدلالية وعدمها من جانب ثانٍ على اعتبار أن تقارب المبني لا بد أن يكون ذات قيمة دلالية تتمثل في تقارب المعنى كذلك . وهذا ليس فرضاً

تخمينياً بل إن الدراسات اللغوية الإحصائية (١) قد أثبتت أن المروف الأولى من جذر الكلمة هي أكثر حروف الكلمة حملاً لحملة المعنى . وبناءً على ذلك فالتقارب في الدلالة بين دحروج ودحمر المتفقان في المعرفتين الأولين ليس دعوى ظنية ، بل هي مؤشر تؤكده الدراسات الحديثة . الأمر الذي يقتضي إعادة النظر في فكرة التقارب الدلالي بين مقلوبات الكلمة في ضوء هذه الضوابط ، دون أن نطلق الأحكام بالقول بالتقارب المطلق بين كل المقلوبات كما ذهب أنصار فكرة الأصول كاين فارس وابن جنى .

٤ - أن ثمة قرابة بين الصور الأربع والعشرين بحكم أن بعضها مقلوب من البعض الآخر ، غير أن هذه القرابة هي أضعف القرابات بين المقلوبات جمياً .

٢ - ٥ - أما الكلمة الخامسة فإن فكرة مضروب العدد الرياضية تعطينا صورة كماسة ، القول ، وذلك بضرب $1 \times 2 \times 3 \times 4 \times 5 = 120$ ، وقد شرح الخليل الفكرة بأن نضرب وجوه الرباعي وهي 24×5 وهي عدد حروف الكلمة الخامسة تكون الجملة ١٢٠ صورة . ولتحصل على هذه الصور كما قال الخليل فإننى أقدم للقارئ تصورين :

التصور الأول : أن الكلمة مثل سفرجل لو حذفنا منها السين ليقيت الكلمة (فرجل) وهي الكلمة رباعية فنضعها في جدول الرباعي فتعطينا ٢٤ صورة رباعية ثم نضيف حرف السين في أول الصور الأربع والعشرين فتكون لدينا ٢٤ صورة خماسية ثم نحذف منها (الفاء) فتبقى (سرجل) ونطبق عليها نفس الإجراء وبناء على ذلك نحصل على ٢٤ صورة رباعية ثم نضيف إليها الفاء في أول كل صورة ونكرر ذلك حتى نحصل على ١٢٠ صورة على التحديد التالي .

١ - انظر الأصوات والأثارات لكندراتوف من ٥١ .

سفرجل - س = فرجل .

سفرجل - ف = سرجل .

سفرجل - ر = سفجل .

سفرجل - ج = سفرل .

سفرجل - ل = سفرج .

ويتم تقليل الكلمات : فرجل - سرجل - سفجل - سفرل - سفرج عن طريق جدول الرباعي فنحصل على ما يلى :

الكلمة الرباعية	صورها الممكنة	الحرف الذى يزداد فى أول الصور	عدد الصور الخامسة بعد الزيادة
فرجل	٢٤	س	٢٤
سرجل	٢٤	ف	٢٤
سفجل	٢٤	ر	٢٤
سفرل	٢٤	ج	٢٤
سفرج	٢٤	ل	٢٤
مجموع صور سفرجل	-		١٢٠ صورة

التصور السابق يعتمد على شرح الخليل لإمكانية الحصول على الصور المختلفة للكلمة الخامسة وذلك بالاعتماد على الكلمة الرباعية في هذا الإجراء ومن قراءة نص العين ، وبعد تطبيق فكرته على الكلمة سفرجل وحصوله على الصور

الممكّنة وجدت خللاً في الصور التي حصل عليها ، وبمقارنه ذلك بنص التهذيب ، لاحظت تكرار نفس الخلل ، وإن كان نص التهذيب أكثر دقة وأكمالاً من نص العين . وقد لاحظ ذلك أستاذنا عبد السلام هارون ، لكنه لم يدرك العلاقات الأخرى التي تربط هذه الصور بعضها بعض (١) .

التصور الثاني : وفيه اجتهدت في إعداد جدول لتوليد صور الخماسي كما فعلت مع الرباعي . وسوف يتبين لنا من خلال هذا الجدول مدى الخلل في الحصول على صور الخماسي في نص العين ونصل التهذيب من جانب وترتيب أستاذنا هارون الدقيق من جانب آخر وهذا هو جدول المتصول على الكلمة الخماسية :

فيتال : سفرجل سفلرج ، سفجلر سفجلر ، سفلجر سفلرج ، سرجفل سرجفل ، سرفجل سرفجل ، سرافج سرافج ، سرافج سرافج ، سلجرف سلجرف : سفاجر سلفرج ، سجلفر سجلرف ، سجفلر سجفلر ، سجرفل سجرلف .
ومنه يتبين أنه وضع هذه الصور في التي عشر زوجاً من الكلمات يشترك كل زوج منها في ثلاثة الأحرف الأولى وهذا نكيل واحد من أشكال العلاقات بين هذه الصور ، وهو أسر سينثير من مقارنة الشائج التي وصل إليها بنتائج سواه . انظر النصين السابقين التمهيديين ٤٩١ .

تقطیب سفر جل رقم ۱

جدول المقارنة

المسلسل	نص العين	نص التهذيب	نص الأستاذ هارون	نتيجة المدول
١	سفرجل	سفرجل	سفرجل	سفرجل
٢	سفرلح	سفرلح	سفرلح	سفرلح
٣	سفلرل	سفلرل	سفلرل	سفلرل
٤	سفلرل	سفلرل	سفلرل	سفلرل
٥	سفلرف	سفلرج	سفلرج	سفلرج
٦	سفلجل	سفلرج	سفلرج	سفلرج
٧	سفلجل	سفلجل	سفلجل	سفلجل
٨	سفلرف	سفلرج	سفلرج	سفلرج
٩	سفلرج	سفلرج	سفلرج	سفلرج
١٠	سفلرج	سفلرج	سفلرج	سفلرج
١١	سفلرف	سفلرج	سفلرج	سفلرف
١٢	سفلرج	سفلرج	سفلرج	سفلرج
١٣	سفلرف	سفلرج	سفلرج	سفلرف
١٤	سفلرف	سفلرج	سفلرج	سفلرف
١٥	سفلرف	سفلرف	سفلرف	سفلرف
١٦	سفلرف	سفلرف	سفلرف	سفلرف
١٧	سفلرف	سفلرف	سفلرف	سفلرف
١٨	سفلرف	سفلرج	سفلرج	سفلرف
١٩	سفلرف	سفلرف	سفلرف	سفلرف
٢٠	سفلرف	سفلرف	سفلرف	سفلرف
٢١	سفلرف	سفلرف	سفلرف	سفلرف
٢٢	سفلرف	سفلرف	سفلرف	سفلرف
٢٣	سفلرف	سفلرف	سفلرف	سفلرف
٢٤	سفلرف	سفلرف	سفلرف	سفلرف

من مقارنة نتائج جدول الحصول على صور الخامسي الذي قمت به بنتائج نص العين ونص التهذيب وترتيب أستاذنا هارون يتيمن لنا ما يلى :

٢ - ٥ - ١ - أن نص العين مضطرب ولا يستند إلى أى شكل من أشكال التنظيم في الحصول على الصور . اللهم إلا الثنائي ١ ، ٢ سرجل سفرلخ ، وال الثنائي ٦ ، ٧ سرجل سرجل ، وجاءت بقيه الثنائيات العشرة مضطربة ، وناقصة فلم يرد في النص إلا ثمان عشرة صورة من وجوه الخامسي المبدوعة بالسين وعددها أربع وعشرون صورة . وهذا يعني وجود نقص في ذكر الصور وضع له رمز \ominus

٢ - ٥ - ٢ - أن نص التهذيب جاء أكثر انتظاماً فجاءت المجموعة الأولى وعددها ست صور مطابقة للمجموعة الأولى في المجدول وفي ترتيب الأستاذ هارون . ثم بدأ الاختلاف في المجموعة الثانية وازداد خللاً في بقية الصور . وتكرر فيه بعض الصور مثل سرجل ووضع لذلك علامة \times ، كما تكرر سجرلف ووضع لذلك رمز \times ولم يذكر تبعاً لذلك بعض الصور وعددها صورتان وهما سلريح وسجدلر ، ولم يلتفت إلى هذا النقص أستاذنا هارون .

٢ - ٥ - ٣ - أن ترتيب أستاذنا هارون جاء دقيقاً وإن اختلف مع المجدول في تقديم بعض الصور على بعض ، ولو التزم ترتيب حروف سفرجل باعتبار السين يليها الثناء يليها الراء يليها الحيم يليها اللام كما فعل المجدول لوصل إلى نفس النتيجة ، وهو أمر ترتيب عليه أنه لم يراع إلا ثنائياً واحداً في المجدول وهو كل زوج من الكلمات تشتهر في ثلاثة الأحرف الأولى .

٢ - ٥ - ٤ - أما المجدول فجاء أكثر انتظاماً والالتزام ترتيب الحروف في التقليل الأمر الذي ساعد على ملاحظة الأمور التالية .

٥ - ٤ - أن الصور الأربع والعشرين تشتهر في الحرف الأول بنسبة ٢٠٪ من حروف الكلمة الخامسة وتلك أضعف العلاقات بين مجموع الصور .

٥ - ٤ - أن الصور الأربع والعشرين تنقسم أربع مجموعات كل منها ٦ صور تتفق في الحرفين الأولين : المجموعة الأولى أولها (سف) (الأول والثاني من سفرجل)

المجموعة الثانية أولها (سر) (الأول والثالث من سفرجل)

المجموعة الثالثة أولها (سج) (الأول والرابع من سفرجل)

المجموعة الرابعة أولها (سل) (الأول والخامس من سفرجل)

ومعنى هذه العلاقة وجود اتفاق ٤٠ % من حروف الصور الست . وهي قرابة أقوى من القرابة الموجودة بين الصور الأربع والعشرين جميعاً ، لاحظ النظامية في الحصول على الصور وهذه علاقة لم يلتقط إليها أستاذنا هارون ، مع أنه لاحظها في صور الرباعي (١) .

٥ - ٣ - تنقسم الصور الأربع والعشرون إلى عشر زوجاً من الكلمات يشترك كل زوج منها في ثلاثة الأحرف الأولى بنسبة ٦٠ % من حروف الكلمة وهي تبعاً لذلك أقوى العلاقات بين الصور جميعاً ، وهي الملاحظة التي التفت إليها الأستاذ هارون وساعدته على الوصول إلى الحصر الدقيق من جانب والترتيب الأكثر دقة من غيره من جانب ثان .

وهذا يعني أن مجموع تقلبات الجذر الخامس المائة والعشرين تشتمل على ما يلى :

- ٦٠ زوجاً من الكلمات ، كل زوج يشترك في ثلاثة الأحرف الأولى بنسبة اتفاق ٦٠ % .

- هناك عشرون مجموعة عدد كل منها ٦ صورة تتفق في الحرفين الأولين بنسبة اتفاق ٤٠ % .

١ - فقد لاحظ في ترتيب التهذيب لصور عبري في الرباعي أن وجه الترتيب أن تهتم الكلمة الثالثة (من صور المبدوء بالكاف) يقصد (قعرب) ثانية يقصد (قبر) والثالثة ثالثة . لأن ترتيب التهذيب جاء في هذه المجموعة قعبر ، قبر قعرب قبرع ... ، انظر التهذيب ١

- هناك خمس مجموعات عدد كل منها ٢٤ صورة تتفق كل منها في الحرف الأول بنسبة اتفاق ٢٠ % .

وقد سبق القول إن نسب القرابة بين الكلمات في أول الحذر يمكن أن يستند إليها كأحد الأدلة للقول بالقرابة في نظرية الأصول . فالتي تشتراك في ٢٠ % من حروف الكلمة بينها قرابة لكنها أقل من التي تشتراك في ٤٠ % وهي قرابة دون القرابة بين الكلمات التي تشتراك في ٦٠ % ، وما أكثر ما تستعمل اللغة قديماً وحديثاً الكلمات التي تشتراك في ٦٠ % من الحروف أو ٤ % من الحروف وبينباقي قلب ، تستعملها بمعنى واحد مثل رعبون وعربون بربطمان وبطرمان ، فلهوى ولهوى ، وهلم جرا (١) ..

فهل يسمح لنا هذا التصور بتفسير علية جمع الخليل لمقلوبات الكلمة في مكان واحد على أنها إشارة من نوع ما إلى أن من خصائص فلسفة النظام المعجمي للغة أن تستخدم هذه الصور المختلفة للمقلوبات في معانٍ متقاربة ، وهي فكرة توحى بها كلمة « تصريف » بمعنى تغيير يجعل بعضها من بعض في البنى والمعنى معاً . وفي إطار هذا الفهم أيضاً لا تصبح فكرة التقاليد طرحاً عبئياً لميادن مختلفة ، بل لميادن ذات معانٍ بينها صلات على المستويين معاً مستوى البنية أو الشكل ومستوى الدلالة أو المعنى كذلك ، وهو طرح في إطار فلسفة المعجم الذهني للغة ، ومحاولة تصوّره ، دون أن يقصد الخليل بها أى شكل من أشكال التبويب المعجمي ، ولعل ما يدعم هذا الفهم أن الخليل كان يقدم المقلوبات المختلفة للمادة بوصفها أمثلة للفكرة ، ولم يطبقها تبعاً لذلك إلا في الثنائي والثلاثي فقط على حين أنه لم يضطرد في تطبيقها على الرباعي والخمساني ، مما يؤكد أنه إنما يقدم التقاليد كفكرة نظرية تحريرية لتصور نظام اللغة المعجمي وال العلاقات في الشكل والمعنى بين التقاليد ، ولو كان الهدف من فكرة التقاليد هو التبويب المعجمي القاموسي

١- انظر نماذج لهذا في القديم في المزهر ٢٧٧ / ٢ ونماذج أخرى في الحديث من كتاب في التطور اللغوي ص ٥٩ .

لطبقها على الرباعي والخامسي ، ولا يُعرض على ذلك بصعوبة هذا التطبيق لأن مادة الرباعي والخامسي المستعملة فعلاً بالقياس إلى المهمل لا تصل إلى ٥٪ من الممكن رياضياً لصور الرباعي والخامسي ^(١) . الرجل إذن لم يقصد التبويض بل استهدف تقديم أمثلة للنظرية ليس غير .

٣ - ١ من نص الخليل الخاص بالتقاليد تلقيف فكرة أخرى خلا فكرة الـ « تصريف » أو التقاليد التي عو留意ت في النقطة السابقة ، وأعني بالفكرة الجديدة ما سماه الخليل بـ « المهمل والمستعمل » وهي فكرة نظرية رياضية كذلك لتصور طاقات النظام المعجمي للغة ، وأحسبها واحدة من البحوث المنهجية الذكية في النظرية المعجمية خاصة واللغوية بوجه عام ، وهي فكرة تحتاج إلى شيء من إعادة التناول في ضوء عدد من المعطيات الجديدة التي تطرحها بعض النظريات العلمية الجديدة في الرياضيات من جانب أو في اللغويات الحديثة التي اتّكأت على الرياضيات من جانب آخر .

إن الخليل حين طرح فكرة المستعمل والمهمل أو الموجود بالقصوة والموجود بالفعل من مادة المجمجم العربي كان يحاول استقراء المادة النظرية التي أفرزتها آلية التقاليد ، وبذلك تكون هذه الفكرة عنده جزءاً مكملاً ومترابطاً مع الفكرة السابقة ، فالتقاليد حصر واستخرج المستعمل والمهمل قراءة مادة المعجم واستبطاط يعين على فهم فلسفة كل منهما .

وقد حاول علماء الرياضيات أن يحصروا الممكن رياضياً في ضوء فكرة التباديل والتوافق ، ويقال إن الخليل فعل ذلك وحصر إمكانات اللغة في ضوء هذه الفكرة ، وليس في نص العين أية إشارة تفيد أن الخليل فعل ذلك ، وقد أشار السيوطي في مزهره إلى ما نسب إلى الخليل من أرقام ^(٢) .

١ - سيأتي جدول بهذه النسب بعد صفحات من هذا البحث .

٢ - انظر المزهر ص ١ / ٧٤ - ٧٥ .

أما المحدثون من علماء الرياضيات فقد وضعوا الفكرة في حيز التنفيذ ، وفي إطار نظرية المعلومات information theory وهي نظرية رياضية حديثة تم الاستفادة من فكرة المستعمل والمهمل في مجالات عملية مختلفة ، وسوف أعود لذلك بعد قليل .

وقد حاول الدكتور على حلمي موسى أن يقدم حصراً رياضياً للممكن في اللغة العربية في معرض دراسية الرائدتين لمعجمي الصحاح واللسان ، وهذا عرض بالنتائج التي وصل إليها بليه تعليق على هذه النتائج .

- عن الثالثي قال الباحث : « يحتوى معجم لسان العرب على ٦٥٣٨ جذراً ثلاثياً ، والمعروف أن الموضع الأول والثانى فى الجذر يمكن أن يشغله أحد المخروف الثانى والعشرين ^(١) ، على حين يشغل الموضع الثالث أحد هذه المخروف مع استبدال ألف المد بحرفى الواو والياء ، أى أنه يمكن أن يشغل هذا الموضع سبعة وعشرين ^(٢) حرفاً فقط ، لذا فإن عدد الجنور الثلاثية المسموح بها رياضياً هو $(28 \times 28 \times 27)$ أى : 21168 وعلى هذا يمكن استنتاج أن نسبة عدد الجنور الواردة بالمعجم إلى المسموح به رياضياً هي 31% ^(٣) »

- بالنسبة للرباعى : « يحتوى معجم لسان العرب على ٢٥٤٨ جذراً رباعياً ، ونظرأً لأن العدد المسموح به رياضياً هو $(328 \times 27 \times 28)$ أى ما يزيد على نصف المليون فعلى ذلك تبلغ نسبة الجنور الواردة إلى المسموح به حوالي $4,3\%$ في الألف وتمثل الجنور الرباعية $27,5\%$ من مجموع جنور اللسان ^(٤) .

١ - الثانية والعشرين .

٢ - سبعة وعشرون .

٣ - انظر إحصاءات اللسان ص ١٩ .

٤ - انظر إحصاءات اللسان ص ٢١ .

— بالنسبة للخمسى : « يحتوى لسان العرب على ١٨٧ جنراً خمسياً تمثل ٢٪ من مجموع جنور المعجم ^(١) »

وكلام الباحث فى هذه الإحصاءات فى حاجة إلى إعادة نظر على النحو التالى :

— حين تحدث الباحث عن الممكن رياضياً فى الثلاثى ثمده قد خلط بين مستوى المذكر ومستوى الكلمة . والجذر فى اللغة فكرة تجريدية تستحدث عن ثلاثة أحرف صامتة أصلية مثل (ض رب) ، (ك ت ب) ، (ل ع ب) ، (د ع و) ، (ج رى) ، ومن الجذر نحصل على كلمات سواء أكانت فعلاً أم اسمًا مثل ضرب ، ضرباً ، وكتب كتابة ، لعب لعباً ، ودعا دعوة ، وجرى جرياً ، وفي مستوى الكلمة قد تستبدل بعض أصوات المذكر بأخرى كأن تستبدل بالواو والياء فى لام الجذر ألف فبدلاً من دعو وجرى تقول دعا وجرى . فالاستبدال يتم على مستوى الكلمة لا على مستوى المذكر ، والممكن رياضياً يتعامل مع المذكور لا الكلمات .

— حين نحاول أن نحصل على الممكن رياضياً فإننا نضرب مجموع الصوامت فى اللغة فى عدد حروف المذكر ، وصوامت اللغة العربية ثمانية وعشرون ، ليس من بينها صامت يسمى ألفاً . وبناء على ذلك لا يمكن أن يوجد فى الجذر العربى ألف أصلية لا فى فاله ولا فى عينه ولا فى لامه . لأن الألف حركة طويلة vowel وليس صامتاً consonant .

— بناء على ما سبق فإن الممكن رياضياً لثنائي العربية أى للجذور المكونة من حرفين أصليين يكون بضرب 28×28 أى 28^2 صامت حرف أول فى صامت حرف ثان . وجملة ذلك ٧٨٤ جنراً ثانياً ممكناً فى اللغة العربية .

١ - انظر إحصاءات اللسان ص ٢٣ .

- وبناء على ذلك أيضاً فالمسكن رياضياً من المذكور الثلاثية هو 328×28 أو $28 \times 328 = 21,902$ جذرًأً ثلاثيًأً ممكناً.

- أما الرباعي الممكен رياضياً فمجموعه 428×28 أو $28 \times 428 = 614,606$ جذرًأً رباعيًأً ممكناً.

- أما الخامس الممكен رياضياً فهو حاصل ضرب $28 \times 28 \times 28 \times 28 = 28^4 = 17,210,368$ جذرًأً خماسيًأً ممكناً.

وبناء على ما سبق فإن مجموع المذكور الثنائية والثلاثية والرباعية والخامسية الممكنة هو $17,847,760$ جذرًأً في كل اللغة العربية . وهذا جدول بهذه الإحصاءات :

الكمية	المذكور الممكنة رياضياً	المذكور الممكنة	نسبة المستعمل إلى المهل
الثاني	$784 = 228$	٢٠	% ٢,٥١
الثلاثي	$21,902 = 328$	٦٥٣٨	٢٩,٧٨٣
الرباعي	$614,606 = 428$	٢٥٤٨	٠,٤١٤
الخامسى	$17,210,368 = 28^4$	١٨٧	٠,٠٠١
مجموع المستعمل إلى المهل			% ٣٢,٧٤٩
مجموع المستعمل إلى الممكن رياضياً	$17,847,760$	٩٢٩٣	% ٠,٠٥٢

في الجدول السابق رقمان بحاجة إلى بعض بيان : الأول هو مجموع المستعمل إلى المهمل وهو ٣٢,٧٤٩٪ وهذا يعني أن المهمل وحده نحو ٦٧,٢٥١ ونسبة المستعمل هنا إنما هي مجموع نسبة المستعمل إلى المهمل في كل نوع من الأنواع .

أما الرقم الثاني وهو مجموع المستعمل إلى الممكן رياضياً فهو النسبة المغربية لمجموع المذكور المستعملة ٩٢٩٣ إلى مجموع الممكן رياضياً جذراً .

وعلى حين تتحقق نسبة المهمل إلى المستعمل في حصر الصور المستعملة من مقلوبات المذذر إلى الصور التي أهملت منه كالصور المستعملة من دحرج والصور المهمللة من مقلوبات هذا المذذر . فإن نسبة المستعمل إلى الممكן رياضياً تشمل المستعمل فعلاً إلى جملة المهمل في اللغة سواءً أكان بعض مقلوبات جذر له صور مستعملة كدحرج أم كان جذراً مهملأً بكل تقلباته كتلك التماذج التي أشار إليها الخليل مثل قعثج وندعثج ودعثج ومقلوباتها من الرباعي ، ومثل كشعثج وخدعثج وكشعطج وجميع مقلوباتها من الخامس ، وإذا علمنا أن جل الملايين السبعة عشر من الرباعي والخامس ، على حين أن مجموع المستعمل منها هو ٢٧٣٥ جذراً ، أدركتنا سر الفرق الكبير من الرقمنين لنسبة المستعمل إلى المهمل وهي ٣٢,٧٤٩٪ ونسبة المستعمل إلى الممكן رياضياً والتي لا تزيد عن ٠٠٥٢٪ اثنين وخمسين من ألف في المائة .

وأما نسبة المستعمل إلى المهمل في العربية فهي تدور حول المعدل العالمي للغات البشرية التي تشير إلى أن نسبة المهمل في اللغة الطبيعية هي من ٧٠ إلى ٨٠٪ (١) وهي في العربية قرابة ٧٠٪ أو ٦٧,٢٥١٪ بالضبط .
هذا التصور الرياضي للمستعمل والمهمل في اللغة كما طرحته الخليل هو نفسه

الإجراء الرياضي الذي قام به علماء الرياضيات في ضوء نظرية المعلومات ، فقد قام الرياضي السوفيتي أ. خار كيفتشن وهو عالم متخصص في نظرية المعلومات بإجراء حساب من هذا النوع بالنسبة للغة أية لغة : « فلو أن أبجدية اللغة ثلاثة حروف وكل كلمتها تتألف من حرف واحد ، إذن سيكون لدينا ثلاثة كلمات مختلفة مثل (I) في اللغة الإنجليزية بمعنى (أنا) ^(١) ، وإذا كانت كل كلمة من كلمات اللغة تتألف من حرفين سيكون الناتج $3^2 = 900$ مثل أم أب ، هو ، ولكن ليس لدينا كلمات مثل رم فق ... ^(٢) الخ ، واللغة التي تتألف أبجديتها من ثلاثة حروف يمكن أن تعطينا ٢٧,٠٠٠ الكلمة ذات أحرف ثلاثة مثل فتح ، رأس ، نحن ، نهم ... الخ ولكن لا توجد كلمات مثل ساج أو نمح ، يمكن لهذه اللغة أن تعطينا كلمات مركبة من أربع ^(٣) أحرف يصل عددها إلى ٣٤٠ أو ٨١,٠٠٠ وكلمات من خمسة أحرف ٥٣٠ أو ٤٣٠,٠٠٠ الكلمة ، إلا أن لغة كالإنجليزية (وأحرفها ٢٦ حرفاً) تشتمل على ما يقرب من مليون الكلمة مقيدة (إذ إن قاموس ويستر الكامل يضم قرابة نصف مليون الكلمة) ولكن ننعد إلى اللغة الروسية ثانية ، لو

١ - السابق ص ٣٩ ، يعلق المترجم على هذا المثال بقوله : « مثال ذلك في اللغة العربية فعل الأمر من وقى فهو (ق) ، وهو مثال غير دقيق لأن (ق) في العربية ليست وحدة صوتية واحدة بل وحدتان ، القاف والكسرة المقصورة عن الياء ، وليس في العربية كلمة مكونة من حرف واحد فقط أما (I) في المثال الإنجليزي فهي وحدة صوتية واحدة تتألف كلمة في الإنجليزية ، وهو أمر لا نظير له في العربية ، وقد وعى ذلك إمام العربية الخليل حين أشار إلى أن الكلمة العربية لا تبني على أقل من حرفين ، وهي ملاحظة لا تقلل من روعة الترجمة ، ولا دقة الأمثلة العربية التي استعمل بها .

٢ - يلاحظ أن الأمثلة هنا هي أمثلة المترجم وليس ترجمة للنص لأن كلمة أم و الكلمة أب في اللغة الإنجليزية قطعاً أكثر من حرفين . وهي اللغة التي يترجم عنها هذا العمل .

٣ - أربعة أحرف ، وهو خطأ على ما يبدو غير مقصود بدليل مراعاته بدقة قواعد المطابقة في العدد في (خمسة أحرف) في نفس السطر .

عرفنا أن متوسط عدد أحرف الكلمة في اللغة الروسية هو سبعة أحرف (وهذا هو ما تشير إليه الدراسات الإحصائية) إذن فإن الكلمات المستعملة ذات المعنى تمثل ٢٠٠٠٢٪ فقط أى اثنين على عشرة آلاف في المائة من مجموع التالفات الممكنة بين أحرف اللغة الروسية)^(١) .

ولست بحاجة إلى أن أشير إلى أن محاولة عالم الرياضيات السوفيتي لحصر الإمكانيات التي تسمح بها تواليف الأصوات في اللغة هي نفس المحاولة التي قام بها إمام العربية الخليل في القرن الثامن الميلادي لحصر المستعمل والمهمل في لغة القرآن الكريم قبل خار كيفتشن بعشرات السنين ، ولست في معرض المقارنة أو التباهي بما صنع الخليل ، وإنما أرمي في هذا السياق إلى الإشارة إلى ذلك البعد الذي بدأت تأخذه الفكرة على يدي علماء الرياضيات المحدثين وهم يحاولون التعرف على قيمة المهمل أو المحسو أو الفضل . Redundancy .

إن علماء الرياضيات بدأوا ينظرون إلى هذا المهمل على أنه ضروري في النظام اللغوي ، ويشبه أن يكون « حد الأمان في اللغة »^(٢) أو بلغة العصر طبقة أوزون اللغة . ففراغ هذا المهمل من المعنى في الظاهر هو الوسيلة التي تعطى المستعمل معناه في اللغة ، وكلما زاد المهمل انضبطة اللغة وقلت نسبة الخطأ والعكس صحيح ، إذ إن قلة المهمل في اللغة ليست ميزة في النظام اللغوي لأنها تعنى أن أكثر الكلمات الممكنة ذات معنى ، ولو وقع أى خطأ في الاستعمال اللغوي فالاحتمال وقوعه على كلمة ذات معنى احتمال كبير ، وهو ما يؤدي إلى سوء الفهم أو الوقوع في كارثة ، ويشرح لنا كندراتوف ذلك بمثال فيقول : لتخيل طبيباً يصف دواء لمريض ويخطئ في كتابة حرف من حروف اسم الدواء ، هنا قد تكون الكلمة الجديدة اسمًا لسم بدلًا من العقار المطلوب ، يتضح من هذا أن

١ - الأصوات والإشارات ص ٣٩ .

٢ - السابق ص ٤٠ .

الفضل (أو المهمل) في اللغة ليس زخرفاً سطحياً لا مبرر له بل شيئاً مفيداً^(١) ، في ضوء ما سبق يبين لنا أن الصواب قد جانب الدكتور صبحي الصالح حين قال : « والحق أن اللغة الإنسانية لا يمكن أن تختصى مفرداتها إحصاءً رياضياً إذ لا قيمة للفظ لم يجربه الاستعمال »^(٢) .

لقد كشف البحث العلمي قيمة المهمل في النظام اللغوي ، كما اكتشف كرات الدم البيضاء وقيمتها في الجسم ، وبدأ العلماء يطورون وسائلهم لرفع نسبة المهمل في اللغة العلمية إلى أعلى مستوى ممكن ، لأنهم يريدون أن يكون لكل حرف وظيفة محددة ولكل كلمة معنى محدد ، لأن اللغة المشالية هي التي ترتفع فيها نسبة الفضل بهدف الدقة ، وهذا هو السبب كما يقول كندراتوف « في أن ملاح الطائرة الجوى وضباط الاتصال الأرضى يتحدثان لغة تعادل نسبة الحشو (أو المهمل) فيها ٩٦ % من مجموع الكلمات ضمائراً لخلافى أى خطأ مهما كان طفيفاً »^(٣) .

ومن المجالات التي تناول نظرية المعلومات أن تسهم فيها بتنصيب من خلال اكتشافها لقيمة المهمل ، هو محاولة صوغ اللغة في شفرات بحيث يمكن على سبيل المثال اختصار « عبارة الاستهلاك التي تبدأ بها الخطاب للتحية » سيدى العزيز « فهي تتكون من عشرة أحرف ، ويمكن صوغها في إشارة واحدة كرمز لها^(٤) » . ولا يخفى ما يمكن أن يترتب على ذلك من الدقة والاقتصاد في المجهد والوقت ، وآفاق ذلك في مجال الترجمة والترجمة الآلية ، وكتابة العلوم بلغة تشبه الرياضيات دقة لما يساعد على إحداث نقلة هائلة في تبادل المعرفة بين البشر وتقدم

١- السابق نفس الصفحة .

٢- فقه اللغة ص ١٦٨ / ١٦٩ .

٣- الأصوات والإنذارات ص ٤١ .

٤- الأصوات والإنذارات ص ٤٢ .

العلوم من ناحية أخرى ، وثمة مجالات عديدة لتطبيق الفكرة لا داعي للخوض فيها .

ولذا عدنا إلى المجال اللغوي الصرف فإن نظرية المعلومات وهي تماطل التعرف على كمية المعلومات التي يحملها الحرف المعين في اللغة ، وبالتالي كمية المعلومات التي تحملها الكلمة فالجملة فالنص قد كشفت عن أن المعلومات أو الدلالة تتركز في جذر الكلمة وبخاصة حروفها الأولى (١) ، وهذه النتيجة تعنى أن الحروف التي تتصدر الجذر هي أكثر حملاً للدلالة أو المعنى وعلى ذلك فحرف الراء وهو أكثر الحروف ترددًا في صدر الثلاثي ، وحرف العين وهو أكثر الحروف ترددًا في صدر المثلث الرباعية ، وحرف الكاف وهو أكثر الحروف ترددًا في صدر الجذور الخامسة هي أكثر الحروف حملاً للمعنى ، ويضاف إلى ذلك أن الحروف العشرة الكبار بوجه عام والذلالة بوجه خاص أكثر ترددًا في نسيج الكلمة العربية وأكثرها ورودًا في الصدر هي أيضاً - في ضوء هذه النتيجة - أعلى السلال حملاً لجزئية المعنى في الكلمة وهو ما يؤكد ما لاحظه البحث من أن حديث الخليل عن التشكيلات الصوتية في البنية المعجمية ليس حديثاً خاصاً بالبنية فحسب بل إن له قيمة على مستوى المعنى كذلك وهو ما تكشف عنه نظرية المعلومات من خلال معيار القياس الكمي للمعلومات في اللغة على مستوى الحرف وعلى مستوى الكلمة وعلى مستوى الجملة وعلى مستوى النص .

فالمهمل في مقابل المستعمل هو إذن شكل من أشكال التقابل اللغوي ، إذ بالمهمل تظهر قيمة المستعمل وتتحدد وظيفته في اللغة ، وهذا التقابل على المستوى المعجمي قسيم لبقية التقابلات على مستوى الأصوات كالمجهور في مقابل المهموس والخلقى في مقابل الشفوى ، والمزق في مقابل المفخم الخ وقسم للتقابلات على مستوى الصرف كالتقابل بين الاسم في مقابل الفعل والحرف والجامد في مقابل

١- الأصوات والإشارات ص ٥٠ / ٥١ وهي النتيجة التي وصل إليها العلامة السوفى بيوروفسكي وهو من علماء نظرية المعلومات .

المشتق والمفرد في مقابل المثنى والجمع .. الخ وقسم للتقابلات على مستوى التحو
كالقابل بين المستند والمستند إليه والقابل بين المرفوع والمنصوب والمحرر والجملة
الاسمية في مقابل الفعلية ... الخ وقسم كذلك للتقابلات في النظام الدلالي
كالدلالة الحقيقة في مقابل المجازية ، وكالدلالة المركزية في مقابلة الهمashية أو
العرضية ، وكالدلالة المعجمية في مقابل الدلالة الصرفية أو التحوية .. الخ .

أما بعد الثاني لفكرة المهمل والمستعمل الخليلية فتبرزه بعض التوظيفات
اللغوية الحديثة التي اتكأت على الرياضيات في التحليل اللغوي ، وأعني في هذا
المقام المنهج التوليدى التحويلى ، ففكرة القدرة أو الإمكانيات من جانب والأداء من
جانب ثان عند تشومسكى في إطار هذه النظرية يمكن اعتبارها على مستوى النظام
اللغوى عامه والتى خاصه امتداداً لفكرة المهمل والمستعمل على مستوى المعجم
. فالقدرة ملكرة فطرية تمثل الكفاءة التي يمتلكها الإنسان والتي يستطيع بها أن
يمتلك آلية اللغة ويستطيع أن ينشئ جملأ لا نهائية ، والأداء هو عملية اختيار
الممكن أو الصحيح فقط مما تسمح به هذه الآلية الفطرية ، فهو من خلال القدرة
يمتلك أصوات اللغة ونظامها ويعمل معجمها ، ويعمل كل إمكانات التنظيم
اللغوى صرفاً وتحوياً لمادة اللغة ، ولكنه لا يوظف ولا يستعمل إلا الأنساق اللغوية
السموح بها والتي يمكن أن يفهمها أبناء اللغة ، ورغم كل الحرية التي يمتلكها في
بناء جمله وعباراته فهو محكوم بتحول الصحيح فقط منها .

والقدرة عند تشومسكى ظاهرة فطرية موجودة عند كل بني البشر وهم
متساوون في امتلاكها ، والأداء الذي هو ممارسة فعلية لهذه القدرة لا يتتجاوز
حدود هذه القدرة بل يتحرك في إطارها ، ومعجم اللغة أية لغة فيه تموج من هذه
القدرة أو الإمكانيات التي تسمح بها اللغة في مقابل الأداء أو المستعمل من هذا
السموح به ، والعجيب أن كل لغات البشر في هذا الجانب تحرك في حدود من
٢٠ إلى ٣٠ % وتهمل نحو ٧٠ إلى ٨٠ % من إمكاناتها المعجمية ، أليس هذا

التطابق دليلاً على وجود حدود فطرية للقدرة على التوظيف اللغوي ، تشبه كل حدود القدرات البشرية على المستوى البدني والعقلي والنفسى لهذا الكائن ، وما الغرابة في ذلك أليس المعجم نظاماً من أنظمة اللغة وهو محكوم في فلسنته العامة بما يحكم كل أنظمة اللغة الأخرى . فالمهم والمستعمل على المستوى المعجمى إذن يقابل بشكل أو باخر القدرة والأداء على مستوى الجملة أو النحو عند المحدثين .

وإذا كان الخليل قد عالج إشكالية المهم والمستعمل بشكل ركز فيه على المادة اللغوية ذات المعنى متمثلة في المستعمل ، فقد كانت روبيه أوسع وهو يقدم فكرة التقاليب إيماءً إلى وجود علاقة من نوع ما بعضها متعلق بالبنية الشكلية والآخر متعلق بالبنية الدلالية ، وهو الأمر الذى يمكن أن يجعل بعض التقاليب تبادل الموقع التركيبى نظراً لهذا التقارب ، وربما تأخذ نفس السلوك اللغوى على المستوى النحوى ، وهو أمر يمكن أن يكشف عنه الدرس الحديث . وربط البنية المعجمية الشكلية بدلاتها يظهر في إشارة إلى اختيار العربى طيفة معينة لدلالة تناسب الصيغة التى اختارها كاستخدام الصيغة المشددة لمناسبة المد فى مثل صر وصل وجعل الصيغة المضاعفة منها للترجيح مثل صر صر ، وصل صل ، وإن شاء العربى أعاد ذلك مرتين أو أكثر ليناسب بين الصوت وبين الموقف ، كما أشار الخليل إلى بعض الضوابط التى تحكم تحويل الحرف إلى اسم يادخال التشديد على بنية الحرف ، فأشار في عمله المعجمى إلى بعض العناصر التركيبية كالصحة والاعتدال والتضييف والتثنين والمحذف ، وهو ما عدَّ غريباً في سياق العمل المعجمى ، وفسره البحث على أنه حديث يدخل في صميم النظرية المعجمية بوصف المعجم مستوى من مستويات التحليل اللغوى وخطوة تخدم الصرف والنحو ، وجاء عمل الخليل مراعياً للمبنى والمعنى معاً على حين جاءت النظرية اللغوية في إطار النظرية التوليدية التحويلية قاصرة فأعيد تعديلها لتنفذ من المعجم مدخلأً أساسياً لإجراءات التحليل وتحاول أن تبحث للمعنى عن حلول بعد أن أهمل في مشروعات النظرية الأولى

وتجاهلته من قبلها النظرية الوصفية البنوية ، على حين جاء عمل الخليل موطئاً للدرس الصرفى من جانب والنحوى من جانب آخر ، ويزعم هنا البحث أن النظرية التحوية العربية وهى على الأشهر من وضع الخليل وبصياغة سيبويه قد قامت على نفس الأسس الجوهرية التى قام عليها نظام المجمع وبخاصة فلسفة التقاليب التى حاولت حصر المادة المعجمية للكشف عن فلسفتها ، وأحسب أن بعض مقولات الصرف والنحو يمكن أن يستشف منها هذا المنحى المنهجى ، من ذلك حصر إمكانات الحالة الإعرابية فى الرفع والنصب وال مجرم ولا شيء غير ذلك . وتقسيم الوظائف التحوية تبعاً لذلك إلى مرفوعات ومنصوبات و مجرورات ومجزومات ، وتقسيم التصنيف النحوى للأبواب وفق ذلك أيضاً باب المرفوعات ثم باب المنصوبات ثم باب المجرورات ثم باب المجزومات وقس على ذلك وفى الصرف كان نفس الأمر فالكلمة إما اسم أو فعل أو حرف ولا شيء غير ذلك ، وأبنية الفعل مثلاً إما مجرد وإما مزيد ، والمجرد مثلاً إما مجرد ثلاثة أو رباعى ، ومجرد ثلاثة باعتبار الماضى فعل فعل فعل ، وباعتبار الماضى مع المضارع الإمكانية الرياضية تعطينا ٩ صور المستعمل منها ست صور هي :

فتح يفتح	فعل يفعل	١
نصر ينصر	فعل يفعل	٢
ضرب يضرب	فعل يفعل	٣
كرم يكرم	فعل يفعل	٤
حسب يحسب	فعل يفعل	٥
فطن يفطن	فعل يفعل	٦

وبقية الصور مهملة وهى :

—	فعل يفعل :	٧
—	فعل يفعل :	٨
—	فعل يفعل :	٩

وَفِكْرَةُ الْمُحْسِرُ أَوَ التَّقْلِيْبُ لِمَعْرِفَةِ الْإِمْكَانَاتِ فِي كُلِّ ذَلِكَ وَاضْعَفَهُ تَشْيِيْبُ بِعِصْمَةِ
الْفَاعِلِ وَهُوَ فِي كُلِّ ذَلِكَ وَاحِدٌ هُوَ الْخَلِيلُ ، وَصِرَامَةُ الْإِجْرَاءِ وَدَقَّتُهُ فِي الْمَعْجَمِ هُوَ
نَفْسُهُ مَا نَهَدَهُ فِي الْصِّرَافِ وَالنَّحْوِ ، وَكَمَا لَمْ يُسْتَطِعْ أَحَدًا يُعَدِّلُ مِنْ نَظَرِيَّةِ الْخَلِيلِ
فِي الْعَرْوَضِ فَإِنَّ أَحَدًا فِي ضَوْءِ هَذَا الْبَحْثِ لَمْ يُسْتَطِعْ أَنْ يُكَشِّفَ سِرَّ الْبَنِيَّةِ
الْمَعْجَمِيَّةِ كَمَا فَعَلَ الْخَلِيلُ ، وَكَذَلِكَ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُسْتَطِعْ أَنْ يُعَدِّلْ شَيْئًا فِي نَظَامِ
النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ مِنْذَ وَضَعَهُ سَيِّدُهُ لِأَنَّ الْمَفْكَرَ وَاحِدٌ وَالْمَنْهَجُ الْرِّيَاضِيُّ الْصَّارِمُ فِي هَذِهِ
الْمَسْتَوَيَّاتِ وَاحِدٌ أَيْضًا غَيْرُ أَنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ مِنْ الْجَلْدِ وَالْجَدِيدِ تَقَارِبُ مَا تَحْلِي
بِهِ إِمَامُ الْعَرَبِيَّةِ لِنُكَشِّفَ عَنْ حَقِيقَةِ الْمَنْهَجِ فِي النَّحْوِ وَأَصْوَلِهِ وَفَلْسُفَتِهِ ، وَهُوَ الْأَمْرُ
الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَقُولَ لِهِ نَفْرٌ مِنْ جُنُودِ هَذِهِ الْلُّغَةِ الْخَلُصَّيْنِ .

الفصل الخامس
الأساس الجذرى

ربما كان مناسباً أن أصف معالجة الخليل للأساس الرابع من أسس النهج عنده بأنها رابطة العقد بين جميع الأسس ، ففي فلسفة الجنر تكمن أدق خصيصة معجمية تخضع لنا موسها الكلمة العربية ، وقد حاول المعجميون المخالفون للخليل أن يتحولوا عن الأسس الأخرى من حيث اعتبارها ركيائز تصنيفية ، لا من حيث كونها أساساً منهجية لنظرية المعجم ، وبطبيعة الحال فإن الأخذ بهذا الأساس أو ذلك أو طرح بعض الأسس لا يكون على مستوى التصنيف القاموسي إلا صدئ لمكانة الأساس من نظام اللغة المعجمي ، فقد تخلى ابن دريد عن الأساس الصوتي حين صنف الجمهرة ولا شك أن قيمة الأساس الصوتي على مستوى التصنيف تبدو عنصراً يمكن التخلى عنه بل يصبح طرحة على هذا المستوى أمراً مناسباً لدى المصنف ومفضلاً لدى شدة المعجم ، كم تخلى ابن فارس عن الأساسين الصوتي والتقطي لأنهما عنصران مفضولان كذلك بعناصر أخرى في التصنيف المعجمي أكثر يسراً ، وأجهز الجوهري على الأساس الكمي ، لتصبح الأسس المطروحة من أساس النظرية المعجمية على أساس الكمي ، لتصبح الأسس هي الأساس الصوتي والتقطي والكمي . ولكن أحداً من علماء المعجم لم يستطع أن يطرح الأساس الجنر سواء على مستوى النظرية كما سيظهر من تناول هذا الفصل أم على مستوى التطبيق كما يتجلى في كل معاجمنا التي وصلتنا بعد الخليل وحتى أحدث المعاجم العربية، لم يستطع أن يتخلى أو يطرح الأساس الجنر ، وما كان ذلك ليحدث إلا لأن هذا الأساس هو حجر الزاوية في نظام المعجم ، فهو يمثل القاسم المشترك بين صور المادة اللغوية على مستوى الشكل ، والهور الذي تدور حوله هذه الصور على مستوى الدلالة ، ففي فكرة الجنر تكمن المحرثومة اللغوية التي تحمل أظهر الخصائص التي تميز بها الكلمة على المستوى المعجمي في لغة العرب .

وكانت نصوص الخليل التي صرخ بها فيما يحصل بهذا الأساس قليلة

بالقياس إلى ما ساقه متصلة بالأسس الأخرى ، غير أنها كانت واضحة دقيقة تحمل إلينا فكرة المذنر وتلقي بها إلى رسم الفكر اللغوی العربي فيُفرخ زراري من النظريات اللغوية لا يخطئ التأمل أن يلمع وشیجة القربى بين الأصل الخلیلی وما تفرع عنه ، فمن فكرة المذنر نبتت فكرة أصل المشتقات عند الصرفین ، وما انبثقت عنها من نظرية الأصل والفرع عند النحاة ، ونظرية الاشتراق عند اللغويین وبخاصة الأبناء الثلاثة ابن درید وابن فارس وابن جنی ، ونظرية الأصل الثنائی أو الثنائی للكلمة العربية ، ونظرية الأصل السامی المشترک ، وكلها يدور في ذلك نظرية المذنر الخلیلیة ، وكلی يرى فيما يبني عليه نظریته أساساً صلباً ، لا يکاد المرء يخالف أصحاب هذه النظریة أو تلك كل الخالفة لأنک واجد لا مشاحة في جانب من هذه أو تلك شيئاً من صواب مرده في ظنی إلى اریاتھه بأساس لامراء في سلامته وهو الأساس المذنری .

ولعل من المناسب أن نرجع إلى نصوص الخليل لفهم منه هذه الفكرة ، بعيداً عن كثيর من الأسئلة التي وظفت فيها عند من جاءوا بعده توظيفاً يخالف مراد الخليل . فبعد أن انتهى من حديثه عن الرباعي والخمسى ، وتأكيده على أن ليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف بدأ حديثه عن أقل مبني للكلمة العربية فقال « الاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف ، حرف يبتدا به ، وحرف يحشى به الكلمة ، وحرف يوقف عليه ، فهذه ثلاثة أحرف مثل سعد وعمر ونحوهما من الأسماء . بدئ بالعين وحشيت الكلمة باليم ووقف على الراء ، فاما زيد وكيد فالإيات متعلقة لا يعتمد بها .

فإذا صيرت الثنائي مثل (قد) و (هل) ، (لو) اسماً أدخلت عليه التشديد فقلت هذه لُو مكتوبة ، وهذه قُد حسنة الكِتْبَة ، زدت واوً على واو ، ودالاً على دال ثم أدخلت وشددت ، فالتشديد علامة الإدعاَم ، والحرف الثالث كقول أبي زيد الطالمي :

لیت شعری ، و این منی لیت
إن ليناً وإن اسْوَا عناء

فشدد (لواً) حين جعله اسماً :

قال ليث : قلت لأبي الدقيش : هل لك في زبد ورطب ؟ .

قال : أشدُّ الهلُّ وأوْحَاهُ ، فشدد اللام حين جعله اسماً ، قال وقد تجاء أسماء لفظها على حرفين ، وتماماً ومتناها على ثلاثة أحرف مثل يد ودم وفم ، وإنما ذهب الثالث لعلة أنها جاءت سواكن وخلقتها السكون مثل ياء يَدَى ، وباء دَمَى في آخر الكلمة ، فلما جاء التثنين ساكنًا ، اجتمع ساكنًا ^(١) فثبت التثنين لأنه إعراب وذهب الحرف الساكن ، فإذا أردت معرفتها فاطلبها في الجمع والتصغير كقولهم أيديهم في الجمع ، وُيَدِيهُ في التصغير ويوجد أيضًا في الفعل كقولهم دميت يده ، فإذا ثبّت الفم قلت فموان كانت تلك الظاهرة من الفم الواو .

قال الخليل : بل الفم أصله فوه كما ترى والجمع أفواه ، والفعل فاه يفوه فوهًا إذا فتح فمه للكلام » .

فأما قوله فموان فإنه جعل الواو بدلاً من الظاهرة ، فإن الظاهرة هي هاء و واو ، وهذا إلى جنب الفاء ودخلت الميم عوضاً منها ، والواو في « فموين » دخلت بالغلط ، وذلك أن الشاعر يرى ميماً قد أدخلت في الكلمة فيرى أن الساقط من الفم هو بعد الميم فيدخل الواو وكان ما يظن أن سقط ويغلط ^(٢) .

هذا هو النص الأساسي الذي بسط فيه الخليل رأيه في الأصل الذي تكون عليه الكلمة في العربية ، ومن هذا النص نفهم الأمور التالية :

١ - ٢ - ١ : أن الكلمة العربية تأتي في شكلها الأصلي على ثلاثة

١ - مكنا في النص الحق والصواب (ساكنان) ، ونص التهذيب « فلما جاء التثنين ساكنان لم يجتمع ساكنان ثبّت التثنين لأنه إعراب » وهو كما ترى قد صحيح النص عن الخليل انظر التهذيب ١/٤٢ و ٤٣ و ٤٩ .

٢ - انظر ع ٤٩ - ٥١ و هـ ١/٤٢ - ٤٣ .

أحرف ، هو ما عبر عنه الصرفيون فيما بعد بالفاء والعين واللام ، حرف يبدأ به وهو الفاء ، وحرف يحتسب به وهو العين وحرف يوقف عليه وهو اللام ، ومثل ذلك بأمثلة من الاسم ، على اعتبار أن الاسم لا يكون قط أقل من ثلاثة ، على حين أن الفعل قد يتعرض بكثرة لشيء من التغيير بالحذف فيظهر على غير حقيقته مثل قل وادع وقف .. الخ وإذا كانت الكلمة في العربية تظهر في صورتها الواقعية على هذا النحو الثلاثي ، فإن الأدوات التي ترد ثنائية إذا قُصد أن يسمى بها فلابد من بنائها على نحو ما يُسمى الاسم ، أي على ثلاثة أحرف ، الأمر الذي يقتضي وضع حرف لتحول من صورتها الثنائية القليلة في اللغة إلى الصورة الطبيعية الشائعة وهي الثلاثية ويزاده هذا الحرف بتحول إلى اسم وتخضع بذلك لنا موس الكلمة العام في العربية . ومن ذلك تحويل لون إلى (لوّ) وهل إلى (هلّ) وقد إلى (قدّ) .

١ - ٢ - ٢ : أما الاسم الذي قد يرد على حرفين مثل دم ، وأب ، وفم فهو بالقطع ثلاثي حذف منه حرف ووروده على هذا النحو يعني أمرين : أنها صور للاسم قليلة من جانب ، وخارجة عن النمط الأصلي الفعلى للكلمة في العربية من جانب ثان . وهذه القلة لهذا النوع من الكلمات التي تظهر ثنائية في اللغة مما يدعم أنها على غير الأصل وهي من الأمور التي تويدها الإحصاءات اللغوية كما سبقت الإشارة إذ إن الجنور الثنائي لا تتجاوز ٢٠ جنراً من بين ٩٢٩٣ جنراً هي مجموع جنور اللسان بنسبة ٢١٥ .٪ على حين أن الجنور الثلاثي تبلغ وحدتها ١٦٥٣٨^(١) ونسبةها إلى جملة الجنور ٣٤٥ .٪ ٧٠ .٪ وهو ما يدعم نتيجة ما انتهى إليه الخليل من القول بثلاثية الكلمة العربية ، فمن الثلاثي يأتي جل مفردات المعجم العربي عن طريق التصريف والاشتقاق ، إذن فكرة أن أصل الكلمة في العربية هو الثلاثي مقصود بها أن الثلاثي مصدر توليد المفردات الأساسية ، وليس

١ - راجع هذه الإحصاءات في الفصل الثالث من هذا البحث .

المقصود هنا - كما يعرض الباحثون كثيراً لفكرة الأصل - أصل الشأة أو الأصل التاريخي ، بل المصدر الفعلى الواقعى الذى منه تشتق كلمات اللغة ، أما قضية الأصل التاريخي فهى تدخل فى إطار أصل النشأة اللغوية وهى من الموضوعات ، التى تعد من وجهة النظر العلمية الحديثة من قضايا ما وراء اللغة Metalanguage ، التى يخرجها المحققون من العلماء من دائرة البحث العلمى ؛ لكونها قضية لا يمكن البت فيها ، أو بحثها بحثاً علمياً .

أما الأصل بمعنى المصدر أو الجذر Root الذى منه تشتق الكلمات فالدرس الإحصائى يدعم رأى القائلين بثلاثية هذا الأصل فى ضوء وجود أكثر من ٧٠ % من كلمات اللغة ترجع إلى هذا النوع من الجذور . وهو ما ذهب إليه الخليل وتبعة جمهور الدراسين من العلماء حتى الآن .

١ - ٢ - ٣ : ويفهم كذلك من النص السابق أن الكلمات القليلة التى جاءت ثنائية وأصلها ثلاثي يمكن التعرف على المخلوف منها عن طريق عدد من الإجراءات كاللحجو للجمع مثل يدٌ وأيديهم ، أو الصغير مثل يدٌية أو الفعل مثل دم مع الفعل تكون دميت والثنية مثل فم تكون فموان غيركون المخلوف واوا . وبهذا يكون الخليل قد أرسى دعامة ثانية فى فهم حقيقة البنية اللغوية للكلمة من منطلق تقليبي كذلك وهى تصريف الكلمة على أوجهها المختلفة للتعرف على القاسم المشترك بين هذه الصور أو ما يعرف بالجذر ، إن هذا القاسم هو مجرد فكرة رياضية محايضة تتحدث عن ثلاثة أحرف فى الغالب تحمل جرثومة المعنى دون أية إشارة إلى أية عناصر أخرى سواء متصلة بالزمان كما فى الفعل أو المحدث كما فى المصدر ، وعند التحقق الفعلى فى صيغه ما تظهر هذه العناصر لتميز بين صيغة وأخرى ، أما التعرف على الجذر من خلال الإجراءات السابقة فقد ظل الوسيطة الوحيدة التى بها نعرف هذا القاسم فالـ : قاف والباء واللام هى القاسم بين قتل وقتل وقاتل ومقتول واقتال وقتلة .. الخ ، وهى فكرة لا تتحدث عن أصل

مفترض أو تخميني لا يمكن التتحقق علمياً منه ككل الأصول التي افترضها الصرفيون لأصل المقصورة في حيلي أو ألف التأثير المحدودة في صحراء وأضراها بل هو مجرد قاسم مشترك ، هو الرابط الشكلي والدلالي بين مجموعة من الكلمات التي يربطها هذا القاسم برابط واحد ، وقد جاء كلام الخليل في هذا السياق ليمثل السهل الممتنع فلم ينزلق إلى جدلية الأصل والفرع ، وإنما تصور الجنر مجرد عُمُدٌ تبني منها الكلمة « حرف يبدأ به وحرف يحشى به وحرف يوقف عليه » هذا هو جوهر الفكرة .

والى جانب هذا القاسم المشترك الذي أدركه الخليل لاحظ الصرفيون أساساً آخر تخضع له الكلمة أطلقوها عليه أصل الصيغة ، وقصدوا به البني أو القوالب التجريدية التي يُصبب فيها الجنر ، مثل صيغة فاعل مفعول فعول فعيل أفعال مفاعيل انفعل افتعل إلخ غير أن هذا الأصل الآخر (أصل الصيغة) هو أساس شكلي ، إذا أفاد آية دلالة فهي دلالة وظيفية *Functianal meaning* كدلالة المشاركة في تفاعل مثل تقاتل أو الصيرورة في استفعل مثل استنونق أو المطاوعة في انفعل مثل انكسر الخ وهي لا تتحدد من تلقاء الصيغة بل منها ومن قرائين السياق الأخرى . فقد نجد مثلاً صيغة مثل (فُلْ) تقييد بعض أمثلتها الاشتراك بين الصيغة وبين المصدر مثل : عَدْلٌ ويحسم الأمر في تحديد أي الدلالتين هي المقصودة باللجوء إلى قرائين السياق مثل :

صفة	هذا رجل عَدْلٌ
عَدْلٌ القاضي يصون الحقوق	مصدر وهم جر ^(١)

أما الجنر فليس أساساً شكلياً خالصاً ، إنه من جانب وحدة شككلية أولى تأتي منها بقية الصور ، وهو وحدة ذات قيمة دلالية أولية تمثل الحد الأدنى مما تشتراك فيه هذه الصور في المعنى . ويمكن أن نتعرف على هذه الوحدة الدلالية

١ - انظر : مناجم البحث في اللغة ٢١٥ .

خارج السياق أقصد على المستوى المعجمي الحالص حين تعد مجرد مدخل معجمي Lexeme ولكن الجذر لا يصبح وحدة دلالية مستقلة Sememe إلا حين يدخل في إطار كلمة معينة . ففي الجذر إذن تمثل الخلية البيولوجية التي تصاحخ منها الكلمة على المستوى المعجمي ، والعلاقة بين القاسم المشترك وهو الجذر من جانب وبين أصل الصيغة من جانب ثان هي علاقة تقاطع « فمثلاً مثل العلاقة بين الخارج والصفات بالنسبة لأصول الحروف أو الأصوات Phoneme ^(١) » وقد شبه الأستاذ كاتينيو Contineau هذين الأصلين بالنسبة للكلمة العربية « بلحمة وسدى النسيج ، فكلما تداخلت اللحمة بالسدى تألفت مفردة جديدة قد تم صوغها من هاتين المادتين أى من أصل معروف (الجذر) ومن أوزان ومقاييس معينة (أصل الصيغة ^(٢)) » وإذا لزم يتألف هذان الأصلان ظهرت الفجوات المعجمية Lexical - gaps والى تعنى أن الجذر لا يوجد منه كلمة على وزن ما ، فمثلاً الجذر (ق ر ء) يتألف مع فاعل فيظهر كلمة قارئ ، ولكنه لا يتألف مع (ان فعل) فلا توجد في اللغة كلمة من هذا الجذر على هذا الوزن وتلك هي الفجوة المعجمية أو الكلمة المهملة كما عبر الخليل .

ذلك فكرة الجذر ، وهذا أثراها في تشكيل بنية الكلمة العربية فهي المادة الخام أو العجينة التي تصنع منها الكلمة ويتأتى أصل الصيغة ليمثل القالب الذي تصب فيه العجينة فتخرج الكلمة على هيئة معينة بدلالة معجمية عامة ، ويتأتى السياق بشتية اللفظي والمقامي ليعين لها الدلالة أو المعنى المحدد الذي تلعبه في الجملة أولاً وفي النص أخيراً .

٢ - ١ : ما سبق تناوله هو جوهر فكرة الجذر ، وقد تم بسطها مع الثالثي خاصية لأن فيه كما سبق جل مادة المعجم العربي ، أما عن الرباعي من الجذور فقد

١ - الأصول : ١٢٤ .

٢ - الأنسنة العربية ١ / ١١٦ .

سبق التنبية إلى إشارة الخليل من أن العرب تبني كلمات من أصول أربعة منها ما هو أسماء نحو عقر وعقرب وجنديب ، ومنها أفعال مثل دحرج وحملج وقرطس ^(١) ، وهي مادة في اللغة ليست قليلة فهي تمثل نحو ٢٧,٥٪ ^(٢) ، وإذا كانتا وجدنا من يذهب إلى القول بثنائية الأصل وبين أنها مقوله لا يدعهما الواقع اللغوي فإننا وجدنا من اللغويين من يذهب إلى القول بأن أكثر ما زاد على ثلاثة من الكلمات فهو زائد : فدحرج من عقر وعقرب من عقر ، وحملج من دمح ، وشقلب من قلب ، وبلعوم من بلع وصلدم من صلدم .. الخ ^(٣) . غير أن النظر الحق في المادة العربية مثلاً لا بد أن ينتهي إلى القول بغير ذلك وسيرى أن هناك رباعياً وضعته العرب أو بنته في الأصل على أربعة أحرف ، وحتى ابن فارس نفسه أكثر المولعين برد الرباعي إلى أصول ثلاثة لا ينكر وجود هذا الرباعي في أصل الوضع فيقول ، وهناك ضرب آخر : « موضوع وضعاً لا مجال له في طرق القياس ^(٤) » وهو لا يمثل لهذا النوع الأخير لأنه بالطبع الأشهر والأكثر اطراداً ، وليس بحاجة إلى تثليل لأنه معلوم مشهور ، وإنما ركز على أمثلة الرباعي ذي الأصل الثلاثي - حسب اعتقاده - ليبين لنا ما فيها من ضرورة الزيادة ^(٥) .

وهذا فرق بين ابن فارس الذي يضع قانوناً لأمثلة قليلة يمكن ردتها - عنده - إلى أصول ثلاثة ، وبين الخليل الذي سجل الظاهرة العامة في اللغة والتي تدعى كون المادة العربية تظهر نوعاً من مبانى العربية وضعته العرب على أربعة أحرف . دون أن يقف أمام تلك الأمثلة التي استوقدت ابن فارس وغيره ، وأغلب العطنى عنده أن منهج الخليل الوصفي الذي يعتمد على الواقع الفعلى لمادة اللغة من جانب

١ - انظر : ع ٤٨ / ١ .

٢ - راجع إحصاءات اللسان ص ٢٩ .

٣ - انظر المقاييس ١ / ٣٢٩ .

٤ - انظر السابق نفس الصفحة .

٥ - انظر فقة اللغة لصبحى الصالح ٢٤٧ .

والذى يقوم على أساس النظرية الشمولية لهذه المادة هو الذى دعا إلى عدم الالتفات إلى اغراض أصول ثلاثة تخمينية فى حاجة إلى تتعديل المنهج ، واللجوء إلى منهج تارىخي للتحقق من سلامته هذه الفرضية ، علماً بأنها فرضية يمكن أن تفسر أمثلة قليلة ، وهو معنى بالظواهر العامة والكلية من خلال نظرية الشمولية التى أشار إليها البحث فى ثابيا المعالجة العلمية لكل الخطوات السابقة .

خلاصة القول إذن أن هناك كلمات مأخوذة من جذور ذات حروف أربعة أصلية تثل قرابة ثلث جذور العربية ، ووجود مبانٍ عربية رباعية الأصل ليست شنوداً يدفعنا إلى البحث عن أصل ثالث أو ثالثى لنردها إليه . فمثلاً لغات فيها كلمات أصول مكونة من حرف واحد مثل (I) فى الانجليزية ، وهناك كلمات أصول مكونة من أكثر من سبعة أحرف فى لغات أخرى ^(١) ، فوجود جذور رباعية فى العربية ظاهرة لغوية طبيعية من جانب ويدعمها الواقع من جانب ثان وهو ما سجله الخليل بسلامة ووضوح ولم يلتفت إلى ما يمكن أن يعده تنويعات أو خروجاً عن سن اللغة العام من أمثلة أثارت فضول غيره من العلماء .

٣ - ١ : أما عن الخامسى خاصية فهو فى حاجة إلى وقة لنتعرف رأى الخليل بوضوح ، ونحاول فهم الفلسفه التى يتعکع عليها . فقد صرخ الخليل بأن العرب تبني كلامها على أربعة أصناف منها الخامسى ومثل لذلك قال « والخامسى من الأفعال نحو اسحننك واقشعر واسحقر واسبكر مبني على خمسة أحرف .

ومن الأسماء نحو : سفرجل وهرجل وشمردل وكنهيل وقرعيل وعقلنل وقعيث وشبيه ^(٢) ، وقال بعد ذلك مباشرة .

والآلف التى فى اسحننك ، واقشعر ، واسحقر ، واسبكر ليست من أصل البناء وإنما أدخلت هذه الألفات فى الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الآلف عماداً

١ - انظر : الأصوات والإشارات ص ٣٩ .

٢ - انظر : ع : ٤٨ / ١ .

عماداً وسلماً للسان إلى حرف البناء لأن اللسان لا ينطق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل . ثم أضاف بعد ذلك قائلاً : قال الخليل : وليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو اسم فاعلم أنها زائدة على البناء ، وليست من أصل الكلمة مثل قرعبلانة إنما أصل بنائها قرعيل و مثل عنكبوت إنما أصل بنائها عنكب^(١) .

وكلام الخليل هنا كلام يحتاج إلى إعمال نظر حتى لا نحمله فرق ما يحتمل ، ويحسن ابتداءً أن نفرق بين عدة منطلقات في النص السابق .

٣ - المنطلق الأول : منطلق الجندر . والخليل مطرد في كون الكلمة العربية لا تكون أكثر من خمسة أحرف لا في الاسم ولا في الفعل . وهذا يعني أن هناك جنوراً ثنائية وثلاثية ورباعية وخمسية ، ولا يستطيع أحد أن يجادل في هذه الحقيقة العلمية بالنسبة للكلمة العربية بصرف النظر عن مفهوم الاسم ومفهوم الفعل .

٤ - المنطلق الثاني : أمثلة المباني الثنائية والثلاثية والرباعية والخمسية ، وهي أمثلة ساقها الخليل ليبين أن هناك كلمات لا جنوراً بتها العرب من أصول صامتة Consonant من حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، والتنوع الأول كله حروف وأدوات ، أما الاسم والفعل فلا يكون على مستوى بنيته الصوتية لا الصرفية الا منسوجاً من ثلاثة على الأقل وخمسة على الأكثر في الاسم والفعل على سواء . وهو هنا يقصد الكلمات لا الجندر . وإنما لا يوجد في النص ما يفيد مخالفة الجمهور - على المستوى الصرفي - في القول بخمسية الفعل ، لأن سيبويه يقول : بنات الخمسة لا تكون في الفعل البتة^(٢) . وكما هو

١ - السابق : ٤٩ / ١ .

٢ - انظر الكتاب ٢ / ٣١٠ .

المعروف فإن سببويه هو لسان الخليل في مسائل الصرف والنحو . فامثلة الخليل للأفعال الخماسية اسحننك واسحنفر واسبكر واقشعر هي أمثلة لكلمات (أو أفعال خماسية) من حيث بنيتها الصوتية لا الصرفية . وهي كذلك بالفعل .

٣ - المتعلق الثالث : هو فكرة الزيادة والأصل . النظر في الأمثلة السابقة التي أوردها الخليل يؤكد أن هناك صوتاً جاء في أول الفعل ليس من بنية الفعل الصوتية وهو الألف الأمر الذي اقتضى من الخليل أن يفسر سبب مجيء هذا الصوت وهو أنه أتى به حتى يتمكن الناطق من إخراج الصوت الساكن في أول الكلمة ، فهو سلسلة النطق وليس من أصل البنية الصوتية الفعلية للكلمة الخماسية . وهو هنا لا يقصد مطلقاً فكرة الزيادة الصرفية ولم يصرح بذلك بدليل :

- أن النون الثالثة الساكنة وبعدها حرفان صحيحان في اسحننك واسحنفر هي حرف زائد كذلك ^(١) وليس معقولاً أن يشير إلى الألف كحرف زائد وينسى النون .

- أنه حين ذكر أمثلة الأسماء الخماسية ذكر عقنة والنون في هذا الاسم زائدة لا مشاحة ولم يشر لشيء من ذلك أيضاً . فهو لا يقصد الزيادة الصرفية ولا يتكلم أصلاً عن البنية الصرفية لا في الفعل ولا في الاسم كذلك .

- أنه أشار إلى خماسية اقشعر واسبكر بعد طرح الألف التي هي مجرد سلم للنطق ، وفسر لنا أن الراء مدغمة فقال «اعلم أن الراء في اقشعر واسبكر هما راءان أدغمت واحدة في الأخرى والتشديد علامة الإدغام ^(٢) » .

وليس في النص أية إشارة إلى زيادة صرفية ، وليس الخليل يجهل أن اقشعر

١ - انظر السابق : ٢ / ٣٥١ وانظر المصالص ١ / ٣٦٣ ، وانظر أمالى ابن الشجري ١ / ٢٣١ وانظر شرح المفصل ٩ / ١٠٤ وانظر شذ العرف ١٤٠ / ١٤٠ . وانظر المتن في تصريف الأفعال ٨٧ وشرح الشافية ج ١ ص ٩ .

٢ - ع : ٤٩ / ١ .

رباعى على المستوى الصرفى ، وإنما أشار إلا أن التضييف هو العلة فى القول بأن البنية الصوتية لكلمة أتشعر خماسية .

ما سبق يتبيّن أن ثمة فرقاً بين فكرة وجود جذور خماسية فى اللغة العربية ولا سبب إلى إنكار ذلك ، وبين تحقق ذلك فى الفعل والاسم معاً ولم يتعرض الخليل لشيء من ذلك وإنما انصبَّ حديث الخليل على كلمات من أفعال كاسحنكك وأخواتها خماسية وأسماء لعقلنكل وأخواتها خماسية كذلك على مستوى البنية الصوتية لا الصرفية ، ولم يكن يقصد بحال عند حديثه عن الألف فى أول الأفعال الخماسية التى مثل بها أو عن راء أتشعر مفهوم الزيادة الصرفية ، لأنَّه يقدم لنا البنية الصوتية المنطورة لكلمة ، وليس به صدد الحديث عن البنية الصرفية لها ولا ما يتعلّق بذلك من الأصلى والزائد . فى ضوء هذا الفهم لنصل الخليل فلا وجه لا عراض الدكتور حسين نصار على الليث حين قال : ويبدو أن الليث لم يحسن فهم الخليل فى هذه المسألة فقد شرح الخليل له أنَّ ألف الوصل مزيدة ليعتمد عليها اللسان فى النطق بالساكن ، والراء المضعة راءان لا واحدة ، فاعتتقد أنَّ الراعنين أصليتان وحكم على الكلمتين بأنَّهما خماسيتان ، ولما كانت الكلمتان فعلين حكم الليث بوجود أفعال خماسية ، وهذه الغلطة الكبرى ... ولهذا يجب أن تنبه إلى خطأ هذا الرأى فيما سيقابلنا من أقوال الليث (١) .

ناقش الدكتور نصار الألف على أساس فكرة الزيادة وجاء بلفظ مزيدة ، والخليل لم يتكلم عن الألف من زاوية الزيادة وعدمها وإنما من زاوية الوظيفة التي من أجلها جيء (٢) بها ، وتجاهل حروف الزيادة الحقيقة وهى التون فى الأمثلة ،

١- المعجم العربى : ١ / ٢٢٩ .

٢- وهذا الذى أفهمه هو ما ذكره كذلك محققاً العين حين قدم الكتاب : « أقول : لم يرد الخليل بقوله : « والألف التي فى اسحنكك ليست من أصل البناء » إنَّها من أحرف الزيادة فقد كان يوسعه أن يصرح بذلك ، وإنما أراد أنها وسيلة لخروج الصوت ...

مقدمة العين ص ١١ .

والتي لم يتحدث عنها الخليل مطلقاً وهو ما يعني أنه ليس بسبيل الحديث عن زيادة وأصالة وإنما هو يتكلم عن بنية الكلمة الخامسة الصوتية في الفعل والاسم ، ولم يقع الليث في أية غلطات لأن أمثلة الخليل على هذا المستوى خماسية الاسم منها والفعل على سواء . فالدكتور نصار فهم نص الخليل على غير الوجه الذى قصده ، وتصور أن الخليل يتكلم عن حروف الزيادة في اسحننك واسحنفر واقشعر واسبكر ، وما أراد الخليل من هذا النص مطلقاً أى حديث عن الزيادة الصرفية في هذه الأفعال ، ولهذا تماهى الدكتور نصار مناقشة حقيقة التون في الأفعال والأسماء الخامسة في نص العين والتهذيب ولو تعرض لذلك أو فكر فيه لتبيّن له أن توجيه النص الخليلي على نحو ما فهم سيادته قد جانبه الصواب .

٤ - ١ : الجنر كما يظهر من الصفحات السابقة هو القاسم المشترك بين الصور المختلفة المتولدة عنه عن طريق نظام الاشتراق في اللغة . وإذا كان الاشتراق الأصغر هو أشهر أنواع الاشتراق ، فإنه يدخل في إطار المعاجلة الصرفية الحالصة ، أما بقية الأنواع فهي تدخل في صميم فلسفة اللغة في صوغ كلماتها على مستوى البنية المعجمية ، الأمر الذي لم يفت حاسة الخليل اللغوية ، فراح يرصد ظواهر الاشتراق المختلفة في المادة العربية ، وكانت التفاته إرهاصاً مبكراً أوحى إلى خالفيه بالنظر في إيماءاته العجلية ، كأنه في هذه المسائل يقول لطلاميه انحوا هذا التححو . أما مدى سلامته ما سجله ودقة ما لا حظه فأمر أتركه للصفحات التالية ليستبين لنا الفرق بين ما صنعت الخليل وما فعل خالفوه .

٤ - ٢ : أما أول ظواهر الاشتراق التي أشار إليها فهي ظاهرة النحت ، فقد لاحظ الخليل أن بعض الكلمات في اللغة تأتي مشتقة من كلمتين مستقلتين يقول الخليل : إن العين لا تختلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما إلا أن يشتق فعل من جمع بين كلمتين مثل « حى على » كقول الشاعر .
إلا رب طيف بات منك معانقى إلى أن دعا الداعى الفلاح فحيعلا

يريد قال : « حى على الفلاح » أو كما قال الآخر

إلى أن حيعل الداعى الفلاحا

فبات خيال طيفك لى عنيقا

أو كما قال الثالث :

ألم يحزنك حيعلة المنادى

أقول لها ودمع العين جار

فهذه الكلمة جمعت من (حى) ومن (على) وتقول منه « حيعل يحيعل حيعلة ، وتبقىس ، ورجل عبسمى ، إن كان من عبد شمس أو عبد قيس ، فاخذوا من كلمتين متلاقيتين الكلمة واشتقو فعلاً قال :

وتصحلك منى شيخة عبسمية كان لم تر قبلى أسرى يمانيا

نسبها إلى عبد شمس ، فأخذ العين والباء من (عبد) وأخذ الشين والميم من (شمس) وأسقط الدال والسين ، فيبني من الكلمتين الكلمة فهذا من النحت فهذا من الحجة في قولهم : حيعلة حيعلة ، فإنها مأخوذة من كلمتين (حى على) (١) . من نص الخليل السابق يتبين لنا الأمور التالية :

- أنه يرى أن ظاهرة النحت موجودة في اللغة ، وهي شكل من أشكال الاشتغال يتم به توليد الكلمة من كلمتين مثل حيعل وعبسم وعقبس وما تصرف منها (٢) .

- حديث الخليل عن هذه الظاهرة جاء عرضاً في سياق التطبيق أى في متن المعجم ، وليس في التأسيس النظري (٣) ، مما يعني أنه يعاملها على أنها ظاهرة ليست شائعة ولا تمثل قانوناً لغويأً عاماً مطروداً ، ولو كان كذلك لجاء بها في مقام التنظير والتقعيد ، مما يفهم منه أنها أمثلة تسجل ويلتقت إليها فحسب .

١ - انظر ١ / ٦٠ و ١ / ٥٥ . وانظر كذلك ع ٣ / ٥ .

٢ - انظر بسطاً لامثلته وأشكاله في المزهر ٤٨٢ / ١ وفي عرض أستاذنا الدكتور أنيس لظاهرة النحت في كتابه من أسرار اللغة ص ٨٨ .

٣ - ع ١ / ٦٠ وقد ساق الظاهر في كتاب العين باب الثاني المضاعف .

— مما سبق يتبيّن أنّ الخليل لم يذهب إلى القول بأنّ أغلب الرباعي والخمسى منحوت كما ذهب ابن فارس وآخرون . بل إنّ الرباعي والخمسى ببناءٍ أصليان وضعتهما العرب واستعملتهما على نحو ما رصد ذلك في سياق التأسيس الجمل الذي يمثل رأيه في الظواهر العامة .

— وما ذهب إليه الخليل هو ما يتحقق وحجم أمثلة النحو القليلة في اللغة بوجه عام (١) ، دون أن يكون في ذلك أى تهوي من قيمة هذه الآلية من آليات الاستدلال ، أو التهويل والبالغة في أثرها في المادة العربية كذلك (٢) . فهي شكل من الاستدلال أمدّ اللغة قديماً بمادة عربية تصور نزعة لغوية إلى باب من الاقتصاد في المبني يعرف عند المحدثين بـ *Haphology* أو الاختصار ، وهو موجود في العربية وفي سواها قديماً وحديثاً .

أما من جاءوا بعد الخليل فهم فريقان في معالجة الظاهرة :

فريق تبع الخليل ونظر للظاهرة على أنها من الظواهر الموجودة في اللغة ، ولكتها ليست من الكثرة والاضطرار بحيث يقعد لها أو يفرد لها باب مستقل ،

١ - أوصل ابن فارس أمثلة النحو إلى أكثر من ثلاثة كلام ، وقام آخرون بإحصاءات الكلمات المنحوتة في اللغة قديماً فبلغت عند بعضهم بضعة وثمانين كلمة وعند آخرين نحو مائتين كلمة ، ولم تتجاوز عند البعض بضع عشرات من الكلمات : انظر الماقنوس ٥٧٨ / ٣٣١ والصاحبى ٤٦١ ، والخصائص ١ / ٥٣٧ وما بعدها ، وفقه اللغة للتعالى ٤٣١ / والزهر ٤٨٢ ، والاستدلال عبد الله أمين ٢٤٤ .

٢٦٠

٢ - بعض المحدثين يمول على النحو كثيراً في صياغة المصطلحات العلمية الحديثة ، دون أن يتلفت إلى أن العلميين العرب قد يملاجئوا إلى ظاهرة النحو في صوغ مصطلحاتهم ، فقى معالجتى لمصطلحات الطبع عند الرازى وشملت نحو ١٥٠٠ مصطلح طوى لم يقابلنى مثال واحد للنحو وهو ما يعني أنهما عولوا على وسائل لغوية أخرى غير النحو . انظر دراسة لغة الطبع عند الرازى كما تبدو في كتاب المخواى - رسالة

ماجستير مخطوطة بدار العلوم سنة ١٩٧٩ م . ص ٣٥ .

وعلى هذا النحو جاء حديث سيبويه عن النحت عرضاً في مواضع مختلفة ففي سياق النسب إلى المركب قال: « وقد يجعلون للنسب في الإضافة اسماً مبنزاً - جعفر) ويجعلون فيه من حروف الأول والآخر ، ولا يخرجه من حروفهما ليعرف ، كما قالوا : سبَطْ (بكسر السين وفتح الباء وسكون الهاء) فجعلوا فيه من حروف السبط إذا كان المعنى واحداً ... فمن ذلك عبشي وعبدري وليس هذا بالقياس ^(١) ، وهو ما يعني أنه ينطر إلى النحت على أنه ظاهرة غير مطردة وغير شائعة كذلك كما ذهب أستاذه ، ومن هنا الفريق صناع المعاجم فقد سجلوا الظاهرة ونسبوها للخليل .

أما الفريق الثاني : وعلى رأسه ابن فارس وابن جنى ، والأول خاصية ذهب إلى أن ما زاد على ثلاثة أحرف فأكثره منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد « ضبَطْ » من « ضبط و ضمير » وفي قولهم « صَهْصَلْ » إنه من « صهل » ، و « صلْ » ، وفي الصَلْدِمْ إنه من « الصَلْدِ » والصَدْمِ ^(٢) وذكر مثال الخليل « حِيلْ » ونسبة إليه مؤكداً أنه أول من قال بذلك ^(٣) ، وبالطبع فإن الزعم بأن أكثر ما زاد على

١ - انظر الكتاب ٣ / ٣٧٦ .

٢ - انظر المقياس ١ / ٣٢١ والصاحبى ٤٦١ ، وفته اللغة ٥٧٨ والمزهر ١ / ٤٨٢ .

٣ - ذكر الدكتور صبحى الصالح أن ابن فارس حين استشعر في لفظ الحيملة مولداً إسلامياً ما عرفه فصحاء العرب في الجاهلية تكيف يكون أصلاً في هذا الضرب من الاشتراق الذى لم يشع في لسان العرب كثيراً فليصحح إذن بشاهد فصيح على النحت لا يسع أحداً إنكاره ، وليدرك العلماء بنوع من النحت كان العرب الأقحاح يتفقون عليه وليدرك فيه بما للشاعر الجاهلى عبد بقوث بن وقاوس الحارثي وليلق مطمعنا إلى صواب رأيه : « ومن الشئ الذى كأنه متفق عليه قوله : « عبشي » وقوله : [و] تضحك من شيخه عبشيما ، ويعلق على قول ابن فارس : سبقني لك من نقل عبارة ابن فارس أنه لم يدرك اسم هذا الشاعر الجاهلى ولم يورد البيت كاملاً بل أكفى بصدره لأن فيه موطن الاستشهاد ، وتمتد تسمة البيت مع اسم الشاعر في (المفضليات ١ / ١٥٣ : والحقيقة أن ابن فارس لم يتحقق بهذا الشاهد لتأكيد أصله الظاهر عند العرب الأقحاح لأن الذى استشهد بالبيت كاملاً هو الخليل انظر ١ / ٦١ ، والظاهرة يقربها الغربون وابن فارس إنما يرد ما سبق أن قاله الخليل ، ولكن ثباتان بين توظيف السابق واللاحق .

ثلاثة فهو منحوت هو من قبيل التعميم العلمي الذي هو أقرب إلى الظن والتخيين منه إلى الحقيقة العلمية ^(١) ، وشتان بين رأى الخليل الذى يرصد الظاهرة دون تزيد أو غلوّ ، ويضعها فى حجمها من ظواهر اللغة المختلفة التى تبرز وتحاج إلى تفسير ولكنها لا ترقى إلى مستوى الظواهر العامة المطردة التى يقصد لها .

٥ - تقاليب الخليل و الاشتقاد الأكبر (القلب اللغوى) :

فى الفصل الثالث من هذا البحث عولجت فكرة التقاليب على اعتبار أنها فكرة رياضية لحصر مادة المعجم العربى حصرأ يعين على فهم فلسفتها العامة ، غير أن هذا الحصر عند الخليل لم يكن مجرد سرد عددي ، بل كان حصرأ خاصاً خاضعاً لنظامية معينة قادرة على أن تكشف عن علاقات الكلمات بعضها بعض ، وإذا كان الخليل نفسه لم يعط اللثام عن غايتها من ذلك العرض الخاص للمادة اللغوية ، فإن كثيراً من الدارسين لم يجدوا أى عسر فى تفسير معالجات ابن دريد وابن فارس وابن جنى لفكرة القلب اللغوى على أنها مستوخة بطريقة أو بأخرى من آلية التقاليب الخليلية ^(٢) ، دو أن يكون الخليل نفسه مسؤولاً عن ما شاب هذه المعالجات من اعتساف وتتكلف .

فالخليل كان يجمع مقلوبات الكلمة كلها فى موضع واحد ، فكلمة كتب مثلاً وجميع مقلوباتها الأخرى كبٰت ، وتكبٰت ، بكتٰت ، تكبٰت كلها فى موضع واحد هو كتاب الكاف إذ هي أسبق الأصول الثلاثة فى الترتيب المخرجى الخليلي يليها الناء يليها الباء ، وتأتى الصور الخمسة تحت التقليب كتب من كتاب الكاف باب الثلاثي الصحيح ، ودرج نجدها فى كتاب الحاء تقليب حجدر باب

١ - انظر المباحث اللغوية ص ٨٦ .

٢ - ذهب إلى ذلك الدكتور وافي وأنيس وصباحي الصالح ورمضان عبد التواب وعبد الرحمن الراجحي ، انظر فقه اللغة - ص ١٨٣ - ٢٨٣ ، ومن أسرار اللغة ص ٦٦ ، ودراسات فى فقه اللغة ص ١٨٨ وفي أصول فقه اللغة ص ٢٩٦ / ٢٩٧ وفقه اللغة فى الكتب العربية ص ١٦٤ / ١٦٥ .

الرباعي وهكذا واجتماع الصور المختلفة للأصل الواحد في موضع معاً هو الذي أعاد على إدراك القرابة الدلالية بين هذه المقلوبات فأوحى إلى الأبناء الثلاثة بنظرتهم في الأصل الدلالي المشترك بين مقلوبات الكلمة .

وقد سبق القول عند عرض تقاليب الكلمة إلى أن الكلمة الرباعية تظهر فيها صور متقاربة في الشكل على النحو التالي :

- ١٢ زوجاً من الكلمات يشتراك كل زوج في الحرفين الأولين ويتبادل الحرفان الباقيان الواقع مثل درج ودحجر ، عقرب وعقب .. الخ وهذا التقارب كثيراً ما يترتب عليه تقارب في الدلالة .

- يظهر من مقلوبات الكلمة الرباعية في مجموعات كل منها ٦ كلمات تبدأ كلها بحرف معين وتبادل الحروف الثلاثة الأخرى الواقع مثل : درج دحجر ، درج درح ، وحجر وجحر ويمكن كذلك أن يكون بين هذه المقلوبات قرابة كتلك القرابة الدلالية بين رهسم ورهمس ، رنحس ورنحس ونظائرهما ^(١) .

أما عن الجدول الخامسة فإن أشكال التقارب كثيرة بشكل ظاهر ولافت للنظر فهناك من بين التقاليب المائة والعشرين التي يظهرها نظام تقاليب الكلمة الخامسة يظهر لنا المتماثلات التالية :

- ٦٠ زوجاً من الكلمات يشتراك كل زوج في ثلاثة الأحرف الأولى وذلك نحو سفرجل وسفرلوج ، زيرجد وزيردرج الخ .

- يوجد عشرون مجموعة كل مجموعة مكونة من ٦ كلمات تشتراك في الحرفين الأولين مثل سفرجل سفرلوج سفلجر سفلجر سفجلر . وهكذا .

١ - انظر الاشتقاد لمحمد الله أمين ص ٣٨٧ ، وفي التطور اللغوي ص ٥٩ .

— يوجد خمس مجموعات كل مكون من ٢٤ صورة تشتراك في الحرف الأول وتبادل المعرف الباقية ^(١) ، ومن ذلك في اللهجات العربية بطرمان وبرطمان ، كبرزة وكزيرة وقد يوجد تقارب دلالي بين هذه الصورة وهو أمر محتمل ، حتى مع تلك الصور من الكلمات التي ليست من المتماثلات السابقة ، وإنما من مقلوبات الكلمة عامة مثل عربون ورعبون جنزبيل وزنجيل وأمثالها ^(٢) .

ونظام التقاليب الخليلي هو الذي وقفنا عن قصد أو عن غير قصد على هذا التقارب في المباني وما ترتب عليه من تطابق أو تقارب في المعانى ، وتبعداً لذلك فتح الباب لنظرية الأصل الدلالي المشترك بين مقلوبات الكلمة .

وإذا كان هناك بعض الأمثلة التي تدعم القول بوجود تقارب بين بعض الصور فإن هذا لا يعطى لأنصار هذا الاتجاه الحق في دعواهم العريضة التي تجمع المقلوبات المختلفة معاً وترجعها إلى أصل مشترك في المعنى ، وبالرغم من ذلك الانقباض في نظام التقاليب وما يمكن أن نستخلصه في التعرف على الاشتراك الدلالي الحقيقي ، فإن الغلو والتکلف هو الذي أفسد هذه القضية حتى ضاعت الحقيقة ، ولعل ما قاله ميه عن نظائر هذه الأبحاث التي قام بها الأبناء الثلاثة في باب القلب هو أقرب إلى الواقع حيث وصفها بأنها « من بين أبحاث علم اللسان كافة أدقها وأقلها يقيناً ومن ثم كثیر فيها عبث الهواة ^(٣) » ، ولعل هذا العبث أو الغلو هو الذي دفع بعض الباحثين إلى اتخاذ موقف الرفض أو التشكيك من هذه الجهد واعتبارها مجرد « تخيلات وتأملات تشبه أحلام اليقظة عند رجل (يقصد ابن جن) » أشد ولعه وإعجابه باللغة العربية فتصور فيها ما ليس فيها ، فأضفى عليها من مظاهر

١- انظر تقاليب سفرجل في الفصل الثالث من هذا البحث .

٢- انظر التطور اللغوي ص ٥٩ .

٣- منهج البحث في الأدب واللغة ص ١٠٨ .

السحر ما لا يصح في الأذهان ، ولا تتصف به لغة من لغات البشر (١) .

والذى يطمئن إليه البحث في هذه المسألة هو أن كثيراً من المقلوبات وبخاصة تلك الثنائيات التي تشتراك في ٥٠٪ من الحروف مثل عقرب وعقرب أو ٦٪ مثل زيرجد وزيردرج يمكن أن يوجد بينها تقارب في الدلالة . وهذا مجرد احتمال يحتاج دراسة واقعية للسعادة وإنكار ذلك جملة ينافي روح اللغة وواقعها ، ولكن الغلو والإسراف هو العيب الجوهري الذي ثاب معالجة القدماء للظاهر ، أما أنها تتيكىء على مادة حقيقة فهذا ما لا يصح المنصف إنكاره . فامثلة القديم ، والحديث تؤكد هذا التقارب في مثل جبد وجذب وفحر وحفر ، حمد (٢) ومدح وهو باب واسع لا مشاحة وتبقى فكرة التقريب الخلليلة هي الآلة المهجية القادرة على جعل فحص المادة اللغوية إمكانية متاحة للتأكد من هذه القرابة بين بعض المقلوبات أو نفي ذلك .

٦ - يأتي الإبدال اللغوي Rood modification بوصفه شكلاً من أشكال التغيير الذي يطرأ على الكلمة يقارب القلب غير أنه في حال الإبدال يكون بتغيير حرف من حروف الكلمة الأصلية مع الاحتفاظ بالمعنى الأساسي كلياً أو جزئياً ، وهو باب واسع في اللغة احتفى به اللغويون ومن أمثلته الشائعة أزوهر ، نعق ونهق ، ثلم وتلب ، فإذا كان القلب تغييراً مكانياً لحرف من الحروف من الحروف الأصلية ، فإن الإبدال يتم فيه استبدال حرف بحرف آخر ، ويكون بين المستبدل والمستبدل منه قرابة صوتية تسمح بذلك ، ويضع الباحثون ضوابط دقيقة تحكم هذا الإبدال (٣) .
ويأتي الخلليل أيضاً رائداً في ملاحظة هذه الظواهر في المادة التي يعالجها ،

١ - من أسرار اللغة ص ٦٧ .

٢ - وقد ساق السيوطي نحو مائة مثال - انظر المزهر ١ / ٤٧٦ .

٣ - انظر سر صناعة الأصوات ١ / ١٩٧ - والتطور النحوي ص ٢٨ ، وفي التطور اللغوي

غير أن تناوله لها يختلف عن تناول خالقية كذلك ، فقد أكفى الرجل بوصف الظاهرة دون أن يفسر لنا القانون الذي يحكم هذا الشكل من أشكال التغيير ، وإن كان الإنصاف يقتضي أن نشير إلى أنه على وعي بقيمة التقارب المخرجى في إمكان وقوع البديل .. فالخليل تارة يكتفى برصد أمثلة الإبدال دون تفسير ، وتارة أخرى يقدم لنا تفسيراً صوتياً لعلة وقوعه .

فمن النوع الثاني : « قال الخليل بن أحمد رضى الله عنه : الهاء والهاء لا تألفان في الكلمة واحدة أصلية الحروف لقرب فخر جيهمما في المثل ، ولكنهما يجتمعان من كلمتين لكل واحدة منها معنى على حدة كقول ليدي :

يتمارى في الذي قلت له ولقد يسمع قوله حيئل
وقول آخر :

هَيَّا وَهِيَّا

حي كلمة على حده ومعناها هلم ، وهل حِيشَي ، فجعلنها كلمة واحدة ،
وفي الحديث : إذا ذُكر الصالحون « فَحِيَهُلَا بِعَمْرٍ » أى ثات بذكر عمر ، قال الليث
قلت للخليل : ما مثل هذا الكلام أى يجمع بين كلمتين فيصير منها كلمة واحدة ؟
قال : قول العرب ، عبد شمس وعبد قيس فيقولون : تبشم الرجل وتعبسه وعشمي
ويعقسي ^(١) .

ويفهم من ذلك أن وحده المخرج يمثل عائقاً لاجتماع الأصوات في كلمة ، وهو نفسه الذي يسمح بتبادل الأصوات فيما بينها إذا اتحدت أو تقارب ، ويشير إلى ذلك التلليل قائلاً: ضجع فلان ضججواً أى نام فهو ضاجع وكذلك اضطجع وأصل هذه الطاء تاء ، ولكنهم استقبحوا أن يقولوا : اصتجع^(٢) ، فكأن التلليل

١-ع: ٣/٥

٢١٢ / ١ - السابق :

يريد أن يقول ما يصرح به المحدثون من أن قانون المماثلة assimilation يقتضي أن نأتي بمعطى ليحسن في تأكيد بناء الكلمة فأبدلت التاء طاء وهي النظير المفخم لها^(١).

وطبقاً لنفس القانون جاء قول الخليل : « الإزاعاج نقيس القرار ، أزعجه من بلاده فشخص ولا يقال فزعج ولو قيل انزعج وازدعج لكان صواباً وقياساً^(٢) » .

فأداء الاتصال تقتضي قياساً أن تحول الصيغة من ازتعج إلى ازدعج ، وقوله « قياساً » فيه إدراك إلى أن ثمة قانوناً يحكم الظاهرة ولها قياس تقاد عليه ، وأن إبدال صوت من صوت محكم بقانون هو في المثال الذي قدمه أن التاء تحول أو تبدل دالاً لا تاءً لأن الدال هي النظير المجهور للتاء ، وهو ما يناسب المجهور قبلها وهو الزاي .

غير أن الخليل لا يقف أمام الإبدال بالتفصير دائماً على التحو السابق ، بل يأتي كلامه من النوع الأول الذي يكفي فيه مجرد رصد أمثلة الإبدال بطريقة وصفية فقط ومن أمثلة ذلك .

١ - إبدال الدال تاءً ، والتاء دالاً .

كقول الخليل : « والتربياق لغة في التربيق وهو دواء^(٣) » .

وقوله : « رجل مستع في ميسدع وهو الماضي في أمره^(٤) » .

٢ - إبدال الدال زايا .

« ويقال أرض مزعوقة ومذعوقة وممعوقة ومبعوقة ومسنية بمعنى واحد أى

١ - انظر الأصوات اللغوية ص ١١٥ ، ودراسة الصوت اللغوي ص ٣٢٥ .

٢ - ع ٣١٧ / ١ .

٣ - السابق : ١٢٧ / ٥ .

٤ - السابق : ٣٢٥ / ١ .

أصحابها مطروabil شديدة (١) .

٣- إيدال الرأى سيناً والسين زاياً :

« وربما قالوا : مزحج فى مسجح كالأسد فى الأزد ، والمسجح لين الخد
واللعت أسمجح . قال ذو الرمة :

وخدى كمرأة الغرية أسمجح (٢) .

٤- إيدال الرأى صاداً :

١- ع : ١٣٣ / ١ ، ويعلق أستاذنا الدكتور علم الدين الجندي - في دراسته القيمة : اللهجات العربية في التراث - على هذا المثال قائلاً « فالخليل على جلالة علمه لا يدرى : أن الرعاق بمنزلة الرعاق لغة مستقلة أم لغة » انظر اللهجات العربية ص ٣٥٧ ، وإذا كان الخليل لم يتعرض لهذا المستوى من التحليل اللغوي عامه ، وفي هذا النص موضع التعليق خاصته ، فإن الدكتور الجندي أراد بهذا المثال أن يؤكد أن بعض أمثلة الإيدال يمكن أن تكون ناشطة عن أمراض الكلام كاللثة وهو أمر اختعلط - حسبيما رأى سعادته - لدى علمائنا ومنهم الخليل . وأحسب أن هذا المثال استاداً إلى قول الدكتور الجندي نفسه ص ٣٥٥ يمكن أن يفسر في ضوء قوانين الإيدال في اللغات السامية فسيادته يقول « كما وجدنا أن الذال العربية تبدل دالاً أو زاياً في الآرامية فلرجاع مزاعقة إلى أصل سامي مبدل عن مزاعقة بوصف الأخيرة هي الأصل في العربية أو فق من لرجاعه إلى أمراض نطقية وذلك في ضوء الإمكانية المشار إليها ، ويكون كلام الخليل (بمنزلة) نوعاً من التسوية بين لغتين أو لهجتين شابعتين من لهجات العرب ، إدعاهما أبدلت والأخرى ظلت على الأصل ، وهذا عندي أقرب إلى منهج الخليلي الوصفي ، الأمر الذي يجعل اتهام الخليل بعدم الدراية في غير موضعه ، وما يدعم ذلك . أن اللغة Lisping تكون بتحويل الراء لاماً والسين ثاء أو شيئاً أو دالاً ، وليس إيدال الذال زاياً من مظاهر اللثة ، حتى وإن حدث إيدال بينهما بشكل مرضي أو لبيب خلقى ، الأمر الذي يدعم تفسير ذلك على أنه من قبيل الإيدال اللهجي أو اللغوى ذى الأصول السامية . انظر أمراض الكلام ط ٤ ص ١٥٥ - ١٥٧ واللغة واضطرابات النطق والكلام ص ١٥٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

٢- ع : ٢٠ / ٣ .

« زَدْقٌ : وَزَدْقٌ لِغَةٍ لَهُمْ فِي صَدْقٍ (١) » .

٥ - إِبَدَالُ السِّينِ صَادًا :

« بَصَقَ لِغَةٍ فِي بَسْقٍ ، وَبَصَاقَ الْجَرَادَ لِعَابَهُ (٢) » .

« الصَّنْدُوقُ لِغَةٍ فِي الصَّنْدُوقِ (وَيَجْمِعُ صَنَادِيقَ (٣) » .

« وَالصَّبَّالُ لِغَةٍ فِي السَّبَّالِ : وَهُوَ الدَّقِيقُ الْقَوَافِلُ الصَّغِيرُ الْجَثَثَةُ (٤) » .

٦ - إِبَدَالُ الْحَاءِ عَيْنًا .

« وَيَقَالُ سَجَحَتُ الْحَمَامَةُ وَسَجَعَتْ (٥) » .

٧ - إِبَدَالُ الضَّادِ ظَاءِ .

« الْحَضِظُ لِغَةٍ فِي الْحَضِضِ : « دَاءُهُ يَتَخَلَّدُ مِنْ أَبْوَالِ الْإِبَلِ (٦) » .

٨ - تَبَادُلُ بَيْنَ حُرُوفِ الْعُلَمَةِ وَالْهَمَزَةِ .

« وَفِي الْحِمْوَ ثَلَاثُ لِفَاتٍ : حِمَامًا مُثْلِّ عَصَبَاهَا وَحِمْوَهَا مُثْلِّ أَبْوَاهَا ، وَحِمْوَهَا مَقْصُورٌ مَهْمُوزٌ مُثْلِّ كَمْؤَهَا (٧) » .

٩ - تَبَادُلُ بَيْنَ حُرُوفِ الْذَّلَاقَةِ وَالشَّفُورِيَّةِ .

— الْمَيْمَ وَالْبَاءِ .

١ - السَّابِقُ : ٥ / ٨٨ .

٢ - السَّابِقُ : ٥ / ٦٩ .

٣ - السَّابِقُ : ٥ / ٢٤٦ .

٤ - السَّابِقُ : ٤ / ٣٧٢ .

٥ - ع : ٣ / ٧٠ .

٦ - السَّابِقُ : ٣ / ١٠١ .

٧ - السَّابِقُ : ٣ / ٣١٢ .

ممعونة و مبعة و مسنية بمعنى واحد أي أصابها مطروابل شديد (١) .

ـ الفاء والباء .

ـ و عكفت الطير بالقتيل ... وفي لغة الخفجيين عكبت حولهم الطير فهي عكوب أى عكوف قال شاعرهم : (منسوب إلى مزاحم العقيلي) (٢) .

ـ تظل نسور من شحام عليهم .. عكوباً من العقاب عقاب يذيل (٣) .

النماذج السابقة للإبدال تصور المنهج الذي تعامل به الخليل مع أمثلته ، فهو منهج وصفى أكتفى من الظاهر بتسجيل أمثلتها على أنها نماذج موجودة في اللغة ، ونلمح من عرضه أنه يراها مجرد لهجات أو لغات مختلفة لا مزية لإحداثها على الأخرى اللهم إلا إذا افترضنا أن قوله « لغة في كذا » أن (كذا) هي الأصل أو الأكثر شيوعاً وتلاحظ كذلك أنه التزم بخطوط منهجه العام كما يظهر في البحث وهو عدم الالتفات للظواهر الفردية أو الأمثلة الشاذة وأكاد لا أجد عنده احتفاء بالظواهر اللهجية الغريبة كالكشكشة والكسكسة والمعنعة والقحفحة والاستطاء وأشير إليها من نماذج الإبدال اللغوي الخاص ، وتكاد أمثلة الإبدال عنده أن تكون من ذلك النوع المطرد التي تسمح به قوانين الإبدال كما يظهر من الأمثلة السابق عرضها .

ـ والمتبوع لادة العين سيجد أمامه مادة لغوية تؤكد أن الخليل كان على وعي بعدد من اللغات الأجنبية وبخاصة اللغات السامية والشرقية ، ولا أدرى لماذا لم يوظف هذا الرجل هذه المعرفة في معالجته لأمثلة الإبدال ، وغيرها من القضايا اللغوية ؟ ولماذا قط بمجرد وصف الظواهر التي تقابلها ؟ وأغلبظن أن الرجل التزم بالمنهج الوصفي ، ولم يرد أن يخلط في معالجته بين المنهجين الوصفي والتاريخي ،

ـ ١ـ السابق : ١ / ١٣٣ .

ـ ٢ـ انظر هـ : ١ / ٣٢٣ .

ـ ٣ـ ع : ١ / ٢٠٦ .

وربما لو كان منهجه تاريخياً لجاز له أن يعتمد في بعض الخطوات على المنهج الوصفي^(١)، أما وأنه كما يظهر من ثابتا البحث حتى بتسجيل الظواهر اللغوية العامة كما هي، فهو متلق مع نفسه، وإن امتلك الأدوات التي تسمح له بتفسير ظاهرة الإبدال من منظور تاريخي أو سامي. أما هذه المعرفة السامية فهناك ما يقطع بها في نصوص العين من ذلك:

- وكتنان بن سام بن نوح إلية ينسب الكنعانيون وكانوا يتكلمون بلغة تقارب العربية^(٢).
- ششقل: الكلمة حميرية عبادية لهج بها صيارة العراق في تعبير الدينار^(٣).
- الشترة: الأصبع بالحميرية وجمعه الشتائر^(٤).
- ويقال المُرْجَبَه: المقلع بالعبرانية^(٥).
- هيراشراها بالعبرانية: ياحي يا قيوم^(٦).
- وبلغنا في تفسير (طه) مجزومة أنها بالخشية: يَا رَجُل وَمَنْ قَرَأْهَا (طاه) فهـما حرقـان من الـهـجـاء ، وبلغـنا أن موسـى بن عـمـرـان لـمـ سـمـعـ كـلـامـ الـرـبـ استـفـزـهـ الخـوـفـ حـتـىـ قـامـ عـلـىـ أـصـابـعـ قـدـمـيـهـ خـرـفـاـ قـالـ اللـهـ : طـهـ : أـىـ
- ١ - لا يقال إن المنهج الوصفي بهذا الفهم منهـجـ حـدـيـثـ ، فالعبرة بطبيعة المعالجة التي قدمـهاـ الخـلـيلـ لـاـ بـالـمـسـمـيـاتـ .
- ٢ - عـ: ١ / ٢٠٥ـ وـفـيـ نـسـخـةـ دـ. درـوـيـشـ (ـبـلـغـةـ تـضـارـعـ) وـقـدـ أـشـارـ مـحـقـقـاـ العـيـنـ أـنـ كـلـمـةـ تـضـارـعـ رـبـماـ كـانـتـ مـأـخـوذـةـ مـنـ التـهـلـيـبـ أـوـ الـخـصـصـ .
- ٣ - عـ: ٥ / ٢٤٥ـ .
- ٤ - عـ: ٦ / ٣٠١ـ .
- ٥ - عـ: ٦ / ١١٤ـ .
- ٦ - عـ: ٣ / ٤٠١ـ وـقـدـ لـقـرـىـ إـلـىـ هـذـاـ المـثـالـ وـالـذـىـ يـلـيـ الزـمـيلـ الـدـكـتـورـ مـحـمـدـ حـسـنـ عـبـدـ العـزـيزـ انـظـرـ تـرـجـمـتـهـ لـكـتـابـ الـعـرـبـيـ النـصـصـيـ الـحـدـيـثـ صـ ١٤٢ـ .

اطمئن يا رجل (١) .

- والقطار ، يقال أربعون أوقية من ذهب وفضة ، ويقال هو بالسريانية مثل ملء جلد ذهباً أو فضة ، وبالبربرية ألف مثقال من ذهب أو فضة (٢) .
- ويقال الرّقّوم : بلغة إفريقيّة الرّيد بالتمر (٣) .
- والعيطون : المخدع في لغة البربر ومصر (٤) .
- وهوز : حروف وضعت لحساب الجمل : الهاء خمسة والواو ستة والزاي سبعة (٥) .

وثمة أمثلة كثيرة لا تضيّف أكثر من تأكيد أن الرجل كان ملماً بعدد من اللغات السامية أو لديه معرفة قوية بها ، ولا يمكن أن يكون الخليل مجرد راوٍ لمعارف لغوية شائعة ، فالثابت أنه عالم متذير يمتلك الأدوات المعرفية التي تمكنه أن يشيد هذا الصرح على أساس علمية صلبة ، ولكنه للأسف لم يوظفها على النحو الذي كان يمكن أن يجعله كثيراً من القضايا اللغوية الأمر الذي حمل بعض المستشرقين إلى القول : «ونحن مل موسف له أشد الأسف أن جميع علماء اللغة من المسلمين لم يكونوا يعرفون شيئاً من اللغات السامية كالعبرية والسريانية معرفة صحيحة (٦) » .

- ١ - ع : ٣ / ٣٤٧ ، ٢ / ٢٤٨ . وعلق الدكتور محمد حسين آل ساسين على هذا المعنى بعد أن نسب النص لابن الأبارى قائلاً « وليس فيما ذكر ابن الأبارى وأبو حيان من اللغات السامية ما يزيد وجود طه بهمعنى يا رجل » انظر الدراسات المتفوقة عند العرب ص ٤٨٤ وانظر اللهجات العربية في التراث ص ١٥٦ .
- ٢ - ع : ٤ / ٥ - ٣٢١ / ٥ - ٢٥٦ .
- ٣ - ع : ٥ / ٩٤ .
- ٤ - ع : ٥ / ١٠٣ وانظر المهرة ٣ / ٢٨٨ .
- ٥ - ع : ٥ / ٢٤٩ وانظر أمثلة أخرى نفس الصفحة .
- ٦ - اللغات السامية (ولقنسون) ص ٢١٧ .

وهو قول فيه تعميم ينافي المنهجية العلمية ، وإن كان لم يجاوز الحقيقة حين قرر أن عدم تفسير الطواهر في ضوء المعرفة السامية يعدّ قصوراً « لأنّه ليس من الممكن في كل الأحوال أن يهتدى الباحث إلى أصل اشتراق الكلمة إذا اقتصر في بحثه على لغة سامية واحدة » (١) .

ولم يقتصر الخليل في عدم توظيفه للشتق المعرفي على الجانب السامي ، بل امتد إلى عدم استئماره لمعارفه الأخرى وبخاصة الفارسية في المعالجة اللغوية ، وإن كان ما جاء به في هذا الصدد يعدّ ياكورة للدراسة التأصيلية ، وهو بذلك الرائد في الحديث عن المَعْرُب والدُخُول في لغة العرب من ذلك مثلاً :

— والخورنق : نهر وهو بالفارسية (خرنگاه) مغرب الخورنق . قال الأعشى صيرفون في أنهارها والخورنق (٢) .

والبلسان : نهريل ونهر بالفارسية : سلسلات ورثا :

لنا جلسان عندها وينفسج . وسمير والمزجوش منمنما (٣)

— الهمقان : واحدتها همقاقه بوزن فعللة ، ولا أظنه إلا دخيلاً من كلام العجم أو كلام بلغم خاصة ، لأنّها تكون بجمال بلغم وهي حبة تشبه حب القطن في جماعة مثل الحشياش إلا أنها صلبة ذات شعب ، يلقى حبه ويؤكل ، يزيد في الجماع (٤) .

— المهندرس : الذي يقدر مجاري القُنْيَّةِ ومواضعها حيث يحضر ، وهو مشتق من الهندره ، فارسي صيرت الرأى سيناً ، لأنّه ليس بعد الدال زاي في شيء من

١ - السابق نفس الصفحة .

٢ - ع : ٤ / ٣٢٢ - ٣٢٢ .

٣ - ع : ٦ / ٥٤ .

٤ - ع : ٣ / ٣٧٢ .

كلام العرب^(١).

الكتشخان : الديوث : وهو دخيل لأنه ليس في كلام العرب رباعية مختلفة المروف على فعلال ، ولا يكون إلا بكسر الصدر غير كتشخان فإنه يفتح فإن أعرب قيل كتشخان على فعلال ، ويقال للشاتم لا تكتشخ فلاناً^(٢) .

ويمكن سرد صفحات من نظائر هذه الأمثلة لتأكيد هذه المعرفة الخليلية بلغات شرقية وبخاصة الفارسية ، غير أن معالجته لهذه المادة ، أقصد غير السامية كانت تسمى بسمتين بارزتين : الأولى : هي محاولة وضع معايير لتمييز الكلمة العربية من الدخلية كما في مثال المهندس والكتشخان ، وهو بذلك رائد في الدراسة التأصيلية لمادة المعجم العربي يسبق بذلك رواد هذا اللون من الدراسات كأبي منصور الجواليقي والشهاب الحفاجي ، وقد ترسّع ابن دريد في هذا وتنظّم مادة غزيرة في معجمه الجمهرة تدعم أن المسيرة بدأت مبكرة على يد الخليل وحوارية السمة الثانية توظيف المعرف العامة كمعيار للحكم بعربيّة الكلمة ، كالمعرفة الجغرافية ، حين لاحظ أن كلمة الهمقان ، بوصفها اسمًا على حب لا ينتج في البيعة العربية حكم بعدم عربيّة الكلمة . ولعل ذلك هو ما جعله ينتهي إلى رصد مجموعة أحكام عامة أكّدت صحتها الدراسات الاحصائية من ذلك .

ليس في كلام العرب دعشوة ولا جلاهت ، ولا كلمة صدرها (نر) وليس في شيء من الألسن ظاء غير العربية ، ولا من لسان إلا التور فيه تور^(٣) .

الكتشخ والكتشخج والكتشطج وأشياههن مولدات لا تجوز في كلام العرب لأنه ليس فيهن شيء من حروف الذلق والشفوية فلا تقبلن منها شيئاً فإن

١ - السابق : ٤ / ١٢٠ .

٢ - السابق : ٤ / ١٥٥ وانظر كذلك ٥ / ٥ ، ٢٤٣ / ٥ ، ٢٨٨ / ٣ ، ١٠٤ / ٥ ، ٣٤٨ / ٣ .. الخ .

٣ - السابق : ١ / ٥٣ ، ٥٣ / ٥ .

التجارير منهم ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة للبس والمعنى (١).

— ليس للعرب كلمة على بناء فعل (٢).

— ليس في كلام العرب رباعية مختلفة المروف على فعل (٣).

— القاف والكاف لا يجتمعان في كلمة واحدة إلا أن تكون الكلمة مقدرة من كلام العجم ، وكذلك الجيم مع القاف لا يأتلفان إلا بفصل لازم ، وغير هذه الكلمات المقدرة ، وهي الجوالق والقبح ، ليستا بعربية مقدرة ولا فارسية (٤).

— الهاء والفاء لا تألفان في كلمة واحدة أصلية المروف لقرب مخرجيهما في الحال (٥).

— ليس بعد الدال زاي في شيء من كلام العرب (٦).

من كل ما سبق يتبيّن أن الخليل كان على معرفة تامة بلغات متعددة ومعارف متنوعة جعلته يقفنا على كثير من أسرار البنية المعجمية للكلمة العربية ، ولو وظف هذه المعرفة توظيفاً كاملاً وبخاصة الشق السامي لما استطاع أحد أن يُضيف شيئاً لما قال ، وكانت أفكاره ملهمة للباحثين الذين جاءوا بعده خلائق كل منهم ذكرة سواء فكرته الخاصة عن القيمة التعبيرية للمروف ومحاكاة الصوت ، أم فكرته عن التقاليب ، أم فكرته عن النحت أم فكرته عن الإبدال ، وفيما يتصل بالابدال خاصة

١— السابق : ١ / ٥٢ - ٥٣ .

٢— السابق : ٥ / ٥ - ١٨٢ .

٣— السابق : ٤ / ٤ - ١٥٥ .

٤— السابق : ٥ / ٦ - ٣٢ .

٥— السابق : ٣ / ٥ - ٥ .

٦— السابق : ١ / ٥٣ - ٥٢ .

وهو آخر النقاط التي عرض لها البحث في إطار فلسفة الجنر ، فإن الخليل هو الذي أوحى إلى خالفيه كذلك بالتقريب الدلالي في أمثلة الإبدال من ذلك قوله :

« والكده دون الكدم بالأسنان ، والكده بالحجر والخافر ، والكتح دون الكده من الحصى والشىء يصيب الجلد فيؤثر فيه قال » :

يلتحن وجهاً بالحصى متتوحاً

ومرة بحافر مكتوهاً

أى تضرر بباب الريح بالحصى قال :

فأهون بذئب يكبح الريح لاسته

أى تضرر بباب الريح بالحصى .

ومن يروى : تكبح أى تكشف (١)

ولا أظن أحداً من تابع ابن جنی في باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانی في خصائصه الا واجداً أن ما قاله هو من هذا الباب الذي فتحه الخليل ، كان المعلم قال ل聆ميذه ما قاله الإمام على لأبي الأسود « انح هذا التحو » وتقف لقطات الخليل الذكية شامخة رملهمة كذلك ملن أكملاً المشوار بعده ، وعلى حين يتميز الخليل في أحکامه على هذه الظواهر بالمروره والاعتدال تجد تلاميذه يقطعون ويسمون ويضطرون للتتكلف في النهاية ، أما جوهر الفكرة عند الجميع فأصلها خليلي واحد فمثلاً أمثلة أزوهر نعم ونها ، قسم وقسم عند ابن جنی هي من نفس المجدول الذي انسابت منه أمثلة الخليل كدم وكده وكبح . والأمر في النهاية هو فرق في أسلوب المعالجة بين الرائد ومن خلفه ، فأمثلة الإبدال مثلاً يمكن أن يعاد النظر فيها وتفسيرها بشكل علمي استكمالاً لصنيع الخليل ، وأحسب أن حكم ستكفتش عن

الإبدال فيه شيء من صواب حين قال عنه أنه : « من الأسس الهامة لفهم بنية المجم المجرى ، لأنه يوضح لنا الأصل المعيق للكلمة ، ويتعقب الأصول والتغييرات التي تؤلف الإبدال لنرى كيف اخترلت الكلمة العربية إلى أصلية محددين للمعنى مع أصل ثالث أو رابع مع وجود توكيد أو ظل أو رابط بالجذر الآخر ^(١) .

خاتمة البحث



انطلق هذا البحث من التسليم ابتداءً بأمررين ، الأول أن المعجم نظام من أنظمة اللغة ، شأنه في ذلك شأن أنظمة اللغة الأخرى الصوتية والصرفية وال نحوية والدلالية ، والثاني متربع على الأول ، وهو أن عمل الخليل في كتابة العين ، وفي مقدمته على وجه الخصوص هو من قبيل النظرية العلمية في إطار علم المعجم ، وليس من قبيل الصنعة التي تدخل في إطار التبويب المعجمي أو فن المعجمات . هذان المنطلقات في البحث شكلاً المخور الموجهي لتفسير محاولة الخليل في العين وذلك على النحو التالي :

– أن البحث حدد المقصود بالنظرية العلمية ليكون هذا التحديد معياراً يحتمل إليه في التثبت من صحة المقوله التي يتكىء عليها البحث وهي أن عمل الخليل نظرية وليس صنعة معجمية . وارتضى البحث أن يكون العرض والتحليل لعناصر النظرية عند الخليل هو الوسيلة لإثبات صحة المقوله . الأمر الذي جعل من الباب الثاني حتى الباب الأخير مجرد إجابة علمية على ما طرحة الفصل الأول من البحث من استفسار ، هل عمل الخليل فعلاً نظرية في المعجم العربي أكثر من كونه تأليفاً لقاموس ؟ .

– ولم يتعرض البحث لمناقشة قضيائياً تقليدية عالمها آخرون كالم الحاج حول نسبة العين للخليل ، أو مناقشة موضوع تأثير الخليل بالدرس اللغوي عند الهنود أو غيرهم ، لأن ذلك كله نوقش من قبل من جانب ، وليس يدخل في صميم المعالجة التي يهدف إلى عرضها أو التصدى لها من جانب آخر .

– وجاءت مناقشة على اختصار الخليل للترتيب الصوتي لتثبت أن هذا الاختيار استند إلى أساس موضوعي فرضته طبيعة المعالجة ، فالخليل بصدق تفسير النظام المعجمي ، والمعجم هنا وحدته الكلمة المنطقية المكونة بدورها من فوئيمات phonemes ، والمناسب لذلك أن يكون الترتيب صوتيًّا ، ولا يناسب هنا أن يأخذ بالترتيب الألفبائي أو الأبجدى لأنهما ترتيبان للرموز الكتابية وهذا

يخص المفردات العصامية في القاموس Dictionary ، وهذا العمل ليس هو الهدف الذي يسعى إليه الخليل ، والذين ظنوا أنه كان أولى بالرجل أن يأخذ بالترتيب الألفبائي ، حسبوا أنه يُولف قاموساً ، وما لهذا في الأصل كان عمله .

— وكان اختياره للعين صدراً لترتيبه المخرجى وأسماً لمعجمه متوكلاً على أسس موضوعية كذلك ، لأن الرجل لا يهدف إلى وصف صوتى خالص لترتيب الأصوات العربية ، بل كان يقدم وصفاً صوتياً خاصاً في سياق بيته ، وهو التعرف على أسرار البنية المعجمية للكلمة العربية ، وإذا كانت الهمزة والهاء عنده أسبقاً مخرجاً كما صرخ هو بذلك ، فإن العين من بين أصوات المقدمة يمثل صوتاً ذا خصوصية في نسيج هذه البنية ، فهو يشارك الهمزة والهاء السبق المخرجى ويفصل بينهما بالوضوح السمعى من جانب والتميز والبروز في تشكيل الكلمات ، والعربين يؤثرون من هذه الناحية على كل من الهمزة والهاء ، وهو أمر أكدته الدراسات الإحصائية . ذلك ما حدا بالخليل أن ينصرف عن الهمزة والهاء ويتخذ العين صدراً لترتيبه .

— وتناوله البحث كذلك عدداً من الملاحظات التي أبدأها عدد من الباحثين المحدثين على عمل الخليل سواء بالشكك في كتاب العين ونسبة كبير من المعلومات التي طرحتها فيه إلى ابن جنى كما فعل أستاذنا الدكتور أنيس ، أم الحكم على أحکام الخليل الصوتية من زاوية صوتية خالصية واتهامه تبعاً لذلك بالاضطراب كما ذهب أستاذنا الدكتور كمال بشر ، أم اتهامه بالخلط بين الهمزة والواو والياء وضمها معاً كما فعل الدكتور حسين نصار ، وقد رد البحث كل ذلك مثبتاً أصالة الفكر الخليلي وموضحاً أن عمل الخليل ليس صوتياً خالصاً الأمر الذي يقتضي إعادة النظر في أفكاره بوصفها ملاحظات صوتية في سياق معجمي . وفي ضوء ذلك جلَّ البحث النقاط التي عالجها

هؤلاء الباحثون ، وأظهر دقة الخليل واتساق أفكاره ، وأصالته وسبقه في التعرف على تميز حزمه الدلالة الصوتية في نسيج الكلمة العربية ، وهو صاحب المصطلحات الصوتية الدقيقة التي عززت لابن جنى ، كما أبان عن دقة الخليل في وصف الهمزة تارة بأنها لا مخرج لها وتارة بحسبتها إلى مخرج بعينه وهو في الحالة الأولى قصد نوعاً من الهمزة هي المعروفة بالمسهلة كما في ذيب وراس وفي الثانية قصد الهمزة المحققة كما في أسد ، وملا ، وأخذ وعليه لا تناقض ولا اضطراب عنده . أما وضعه للهمزة والواو والياء والألف معاً في آخرة ترتيبه الصوتى فمرد ذلك لسبعين الأول يتصل باتفاقها في خاصية الإعلال وانقلاب بعضها من بعض ، والثانية خاصة بانخفاض نسبة ترددتها في نسيج الكلمة العربية ، والدرس الصرفي يقتنا على صحة الملاحظة الأولى ، والدرس الإحصائى يؤكد صحة الملاحظة الثانية وهو ما يدفع عن الخليل تهمه ضم هذه المجموعة معاً بدون سبب واضح أو العجز عن بيان الفرق بين الهمزة من جانب وحروف العلة من جانب آخر .

وأبان البحث عن أن فلسفة الكمية عند الخليل كانت إجراءً منهجياً جوهرياً في إطار النظرية ، وليس كما ذهب ابن منظور عملاً يشتت الذهن ويدد المجهد ، فمن خلال معرفة أقل المباني وأقصاها كمية يمكن التعرف من خلال الإجراء التقليدي بعد ذلك على كم المستعمل والمهمل ، وبدون معرفة أنواع المباني لا يمكن تحديد ذلك . كما أن هذا الإجراء هو الذي يقتنا على خصائص البنية التي يتميز بها كل نوع من أنواع المباني . وقد تبين مثلاً أن الثنائي ينحصر في الأدوات والحرف وأسماء الأصوات والثلاثي هو جل مادة المعجم ومنه يتولد أكثر من 70% من مواد اللغة . ويليه الرباعي ويليهما الخماسي من حيث الكلم ، وتشيع مجموعتان من السلاسل الصوتية في نسيج الكلمة في هذه الأنواع المجموعة الأولى هي مجموعة الدلالة ، والمجموعة الثانية هي ما أطلق

عليه في البحث مجموعة النصاعة ، وعدة المجموعتين عشرة أصوات تمثل أكثر من ٤٨٪ من أصوات المذر الثلاثي وأكثر من ٦٤٪ من أصوات المذر الرباعي ، وتمثل أكثر من ٦٩٪ من أصوات المذر الخامس ، وتلك النتائج تطابق كلام الخليل عن هذه التربيعية من الأصوات كما سجل البحث تميز الخليل في رصد الضعف النسبي لحروف العلة والهمزة في بنية الكلمة الأمر الذي حداه أن يضمنها معاً في ذيل ترتيبه وهو أمر أكدته كذلك الإحصاءات ، كما رصد البحث عدداً من الأصوات التي تفرد بها العربية كالظاء أو مقاطع لا تظهر في المذر مثل انتهاءه بـ ثج أو طج أو نع ، ونمة طائفة أخرى من التركيبات الصوتية الممتنعة في العربية عولجت في الفصل الأخير .

وعلى حين تميزت ملاحظات الخليل الصوتية في بنية الكلمة العربية بالدقة ومتابقة نتائج الإحصاءات ثمّد ابن منظور الذي هاجم منهج الخليل الصوتي الكمي التقليسي ثمّد بفشل في إعطائنا أيه نتائج مشابهة وجاءت ملاحظاته متناقضة مع نتائج الإحصاءات الحديثة ، فقد نجح الخليل اللغوي المنظر أن يقينا على أسرار بنية الكلمة العربية وأعْصى ابن منظور المؤلف المعجمي حين خاض في عمل ليس من قبيل صنعته .

وجاء الأساس التقليدي متكمأ على الأساسين الكمي والصوتي ليرصد حجم المادة المعجمية ، ويعزز بين المهمل والمستعمل ، ويضع للعربية نظاماً رياضياً دقيقاً لذلك ، ويؤكد الخليل أن يكون أول لغوى معروف يعتمد على الرياضيات في تحليل مستوى من ستويات التحليل اللغوى ، وليس ب بذلك المحدثين ، وليس الأساس التقليدي مجرد أساس حصرى فحسب بل إنه رأى أن العلاقة بين المقلوبات هي علاقة تصريف بما يشي بادراته لوجود علاقة من نوع ما بين المقلوبات وهو الأمر الذي أوصى إلى خالفيه بنظرية الأصول ، أو اتفاق هذه المقلوبات للمادة الواحدة في أصل دلائى واحد ، وإن لم يقل الخليل بذلك فإن إيماناته يمكن استئثارها كما

ذهب البحث من خلال ربط الثنائيات المترابطة بنسبة كبيرة والبحث عن صلة دلائلها بينها دون أن تربط كل الصور كما ذهب القدماء بأصل واحد.

وقد اعتمد البحث على العلمين العلميين الرائدين لإحصاءات الصباح واللسان اللذين قام بهما مشكوراً الدكتور على حلمي موسى في التثبت من دقة ملاحظات الخليل^(١) ، وقد اختلف البحث مع نتيجة الدكتور على حلمي وهو يقدم الإمكانيات الرياضية لحصر مادة المعجم حين اتكاً على الكلمات في عمله ، وحصر الإمكانيات إنما يعتمد على الجذر لا الكلمات الأمر الذي جلده يعتد الألف صوتاً صامتاً يسد مسد الواء والباء في لام الكلمة ، والألف لا تكون بحال أصلية في الجذر وليس لدينا صامت يسمى ألفاً ، وحصر الإمكانيات يعتمد على الجذور لا الكلمات وقد ترتيب على ذلك وجود بعض الخلافات في نتائج حصر الإمكانيات الرياضية لجنور اللغة العربية يمثل الفرق بين الرقم الذي وصل إليه وبين الرقم الذي انتهى إليه البحث .

كما ألمح البحث إلى أن حديث الخليل عن التقاليب والذى أمكن به تصور المستعمل والمهمل أو الموجود بالقوة وال موجود بالفعل على مستوى المعجم يقارب على مستوى النحو منهج التحويليين في التفريق بين القدرة والأداء ، وافتراض البحث أن يكون المنهج التقليبي قد وظف كمنهج حصرى شاملى - في مستويات لغوية أخرى كالصرف والنحو ودلل على ذلك ، ودعا إلى إعادة النظر في النظام الصوتي والصرفى والنحوى والدلالى في ضوء هذا الطرح .

وقد جاء الأساس الجذري بوصفه محوراً أساسياً في الفرضية الخليلية يميز الكلم العربي ، وبه تخضع لنا موسه ، الأمر الذي لم يستطع أحد لا على مستوى النظرية ولا على مستوى التصنيف المجمعي أن يتخلى عنه أو يطرحه من تناوله .

١ - لم يلتفت البحث إلى إحصاءات تاج العروس لتضمنه مادة لغوية بعضها محدث أو ذو صبغة لهجية خاصة .

وقد تعانقت فكرة الأصل الاستئقaci أو المذر مع فكرة أخرى هي أصل الصيغة فكانت آليتين مكملتين لآلية التقاليد في التعرف على المستعمل والمهمل ، وقد أفادت معاجم الأبنية من تكامل أصل المشتقات أو المذر مع أصل الصيغة في التعرف على المباني المستعملة والمباني المهملة على حين أفادت معاجم التروة اللغوية من آلية التقاليد في معرفة المستعمل والمهمل ، وهكذا جاءت فكرة المذر مكملة لفكرة التقاليد من جانب ، ومبرزة أساساً صلباً لمعرفة القاسم المشترك بين الكلم في العربية من جانب آخر .

وخلال معالجة فكرة المذر طرح الخليل عدداً من الإجراءات التي بها يمكن التعرف على المذر كاللجوء إلى إسناد الفعل للضمائر أو جمع الاسم أو تصغيره أو تثنية ، وهو أمر يوصل به الخليل لنهاية التزم به خالفوه بلوغاً لذات الغاية حتى الآن .

كما أثيرةت خلال المعالجة الخليلية عدة ظواهر كالتحت ، والقلب ، والإبدال ، وقد جاء تناول الخليل لهذه الظواهر وصفياً مطبيوعاً لا غلو ولا تزيد في الأحكام ، ولم يتجاوز ما قاله في التحت عن التمثيل له والاعتراف بوجوده كظاهرة دون أن يبني عليه آية أحكام عامة خلافاً لمن جاءوا بعده ، كذلك لم يربط ظواهر القلب بدلالة مشتركة كما سبقت الإشارة ، وأكتفى برصد ظواهر الإبدال ، ولم يتعرض إلا قليلاً لتفصيرها . ولم يحتف بظواهر الإبدال اللهجي الشاذة ، مما يعني أنه كان رجلاً ذا نظرية لغوية شمولية ، وعلى الرغم من أنه لم يقد في المعالجة اللغوية من معرفته بالساميات والتي أكدها البحث فإنه كان أكثر استفادة من معرفته بالفارسية ، وكانت ملاحظاته في المادة الدخيلة تأكيداً على رriadته في مجال البحث المعجمي التأصيلي ، ويأتي رصده لكثير من ظواهر المخصوصية للكلم العربية ، وتسجيله للسلسل الصوتية المتعدة آية على هذا السبق .

وبعد

فإن نظرة إلى عمل الخليل في العين كما يبدو من هذا البحث تؤكد أن الرجل كان بقصد وضع نظرية لغوية تهدف إلى فك شفرة النظام المعجمي العربي ، من خلال طرحه لمجموعة من الأسس المحددة ، يقوم كل أساس منها بتفسير جانب من جوانب هذا النظام ، بحيث تتصهر هذه الأسس معاً في بوققة واحدة لتمثيل فرضية علمية واحدة تسم عناصرها بالتدخل ، وتنتصف آليتها بالشمول والاطراد من جانب وملاءمتها للغة التي وظفت لها بما يعكس وعي الخليل بخصوصية اللغة ، فجاءت خصوصية المنهج تبعاً لذلك . الأمر الذي مكنه من اكتشاف أبرز الخصائص العامة التي تميز كلام العربية على المستوى المعجمي .

وأخيراً فإن هذا البحث المتواضع كان مجرد محاولة مخلصة للاقتراب من عالم الخليل بن أحمد ، سعى فيه صاحبه أن يقدم فهماً خاصاً لغايات هذا العمل ، وتفسيراً لحقيقة كما تصورها . الأمر الذي كشف خلال هذا المنظور الجديد عن أن عمل الخليل في المعجم لا يقل دقة وانضباطاً وشمولية عن أعماله الأخرى في العروض والتحول وإن لم يكن أدقها على الإطلاق ، وهو إلى عقل الخليل الثاقب أقرب ولشخصيته ذات المعرفة الشمولية أدق ، ولا اهتماماته الصوتية الرياضية أصلع .

وكل ما يطمح فيه صاحب البحث أن يكون قد نجح في أن يشير فضول قارئه ، وأن يلتفت نظره إلى جانب هنا أو هناك في تراثنا العربي كما يمثله أصدق تمثيل إمام العربية يستحق أن يلتفت إليه أو يعاد فيه النظر ، فالكلمة الأخيرة في الدراسات اللغوية العربية لم تقل بعد . والله أسأل أن ينفع بهذا البحث شدة العربية عامة والمشتغلين بالدرس المعجمي على وجه الخصوص .



ثبات المراجع

- الإبدال في كلام العرب - أبو الطيب اللغوي - ت عز الدين التتوخي - دمشق ١٩٦٠ م.
- الاستفاق - عبد الله أمين - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٦ م.
- الأصوات والإشارات - كندراتوق - ترجمة شوقي جلال - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م.
- الأصوات اللغوية - د. إبراهيم أنيس - الانہلہ المصرية ط ٥ - ١٩٧٥ م.
- الأصوات اللغوية - د. محمد على الخولي - مكتبة الخريجي بالرياض ط ١ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- الأصول - د. تمام حسان - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٢ م.
- الألسنية العربية - ريمون طحان - دار الكتاب البناني ط ٢ - ١٩٨١ م.
- الألسنية - علم اللغة الحديث - د. ميشال زكريا - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٥ .
- الألسنية - النظرية اللغوية - د. ميشال زكريا - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - ١٩٨٦ .
- أمراض الكلام - د. مصطفى فهمي - دار مصر للطباعة - الطبعة الرابعة .
- الانصاف في مسائل الخلاف - ابن الأبارى - دار إحياء التراث العربي - بيروت سنة ١٩٦١ .
- البحث اللغوي عند العرب - د. أحمد مختار عمر - عالم الكتب القاهرة ١٩٨٢ .

- البحث اللغوى عند الهنود - د. أحمد مختار عمر - دار الثقافة بيروت ١٩٧٢.

- تاج اللغة وصحاح العربية - للجوهرى - ت. أحمد عبد الغفور عطار - دار الكتاب العربي - القاهرة ١٩٥٦ م.

- تاريخ آداب اللغة العربية - جرجى زيدان - ط ٢ دار الهلال ١٩٠٤ م.

- تاريخ العلاقات بين الهند والبلاد العربية د. محمد إسماعيل التدوى - بيروت - ط الأولى.

- تاريخ علم اللغة - ماريوباي ح- ترجمه بدر الدين القاسم - ١٩٧٢ و ٢ - ترجمة د. نجيب غزاوى بدون تاريخ وزارة التعليم العالى سوريا.

- تاريخ اللغات السامية - إسرائيل ولفنسون - دار العلم - بيروت ط ١ - ١٩٨٠.

- التطور اللغوى - د. رمضان عبد التواب - مكتبة الحاخمى - ١٩٨٣ .

- التطور النحوى - برشترامر - ترجمة د. رمضان عبد التواب - مكتبة الحاخمى - ١٩٨٢ .

- تهذيب اللغة - لأبي منصور الأزهري - تحقيق عبد السلام هارون - المؤسسة العربية العامة للتأليف والطبع والنشر سنة ١٩٦٤ .

- التوليد الدلائى - فى البلاغة والعجم محمد غاليم - دار توبيقال للنشر ١٩٨٧ م.

- جمهرة اللغة - لابن دريد الأزدى - تحقيق كرنوكو - حيدر آباد الدكىن بالهند ١٣٥١ هـ و ط دار صادر - بيروت .

- المخصائق - لأبي الفتح عثمان بن جني - تحقيق محمد على النجار - دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت .
- دراسات إحصائية لمنذور الصداح - د. على حلمي موسى - مطبوعات جامعة الكويت سنة ١٩٧٣ .
- دراسات إحصائية لمنذور اللسان د. على حلمي موسى - مطبوعات جامعة الكويت سنة ١٩٧٢ .
- الدراسات اللغوية عند العرب - د. محمد حسين آل ياسين - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت سنة ١٩٨٠ .
- دراسات في علم اللغة - د. كمال بشر - دار المعارف ط ١٩٧١ .
- دراسات في فقة اللغة - د. صبحي الصالح - دار العلم للملاتين بيروت ط ٨ سنة ١٩٨٠ م .
- دراسة الضوت اللغوي - د. أحمد مختار عمر - عالم الكتب - القاهرة ط ٣ ١٩٨٥ م .
- دروس في علم أصوات العربية - جان كاتينيو - ترجمة صالح القرمادي تونس ١٩٦٦ م .
- دروس في اللغة العبرية ربحي كمال - مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٦ م .
- دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - دار المعرفة - بيروت سنة ١٩٨١ م .
- سر صناعة الإعراب - أبو الفتح عثمان بن جني - تحقيق مصطفى السقا وآخرين - البابي الحلبي ١٩٥٤ .
- شذا العرف - الشيخ أحمد الحملاوى - ط البابي الحلبي ١٩٧٩ م .

- شرح شافية ابن الحاجب - لرضي الدين الاسترباذى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد وآخرين - دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٥ م.
- شرح المفصل - لابن يعيش - ط عالم الكتب - بيروت .
- الصاحبى فى فقه اللغة - لأحمد بن فارس - المكتبة السلفية بالقاهرة ١٩١٠ م
- الصحاح ومدارس المعجمات العربية - أحمد عبد الغفور عطار - دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٦ م.
- العربية - يوهانك - ترجمة عبد الحليم النجار - دار الكتب العربية القاهرة ١٩٥١ .
- العربية الفصحى الحديثة - د. محمد حسن عبد العزيز - دار الفكر العربي ١٩٨٥ م.
- العربية معناها و منهاها - د. ثامن حسان - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٧٩ م.
- علم اللغة الاجتماعي - هدسون - ترجمة د. محمود عياد - عالم الكتب القاهرة ١٩٩٠ م.
- علم اللغة العربية - د. محمود فهمي حجازى - وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٣ .
- علم اللغة وصناعة المعجم - د. على القاسمى - مطبوعات جامعة الرياض ١٩٧٥ م.
- علوم البلاغة - أحمد مصطفى المراغى - دار العلم - بيروت ١٩٨٠ م .

- العين - الخليل بن أحمد الفراهيدي - تحقيق دكتوران مهدي الخزومي وإبراهيم السامرائي - دار الرشيد سنة ١٩٨٠ م.
- فصول في فقه اللغة - د. رمضان عبد التواب - مكتبة الحاخامي ١٩٨٣ م.
- فقه اللغة - لأبي منصور الشعالي - مطبعة الاستقامة بالقاهرة.
- فقه اللغة - محمد المبارك - دار الفكر - بيروت ١٩٦٨ م.
- فقه اللغة - د. علي عبد الواحد وافي - دار نهضة مصر ط ٨.
- فقة اللغة وخصائصها د. أميل يعقوب - دار العلم للملاتين - بيروت ط ٢ م ١٩٨٦.
- فقة اللغة في الكتب العربية - د. عبد الرافع الراجحي - دار النهضة العربية - لبنان سنة ١٩٧٢ م.
- الفلسفة اللغوية د. جرجى زيدان ط ١٩٠٤.
- فى علم اللغة التطبيقي د. محمد فتحى - دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٩ م.
- فى عمل اللغة العام - د. عبد الصبور شاهين . مكتبة الشباب ١٩٨٤ م.
- فى اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٤ م.
- الكتاب - سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان) - ت: عبد السلام هارون - ط ١٩٧٧ م.
- كتاب العين في آثار الدراسين - د. كمال محمد بشر - محاضرات مخطوطة ألقاها على طلاب دار العلوم ١٩٧١ - ١٩٧٢ م.
- كلام العرب د. حسين ظاظا - دار النهضة العربية ١٩٧٦.

- لسان العرب - ابن منظور - ط دار صادر بيروت .
- اللسانيات العربية د. عبد القادر الفهري - منشورات عويدات بيروت م ١٩٨٦ .
- لغات البشر - ماريوباي - ترجمة د. صلاح العربي - قسم التشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٧٠ م .
- اللغات الأجنبية تعلمها وتعلمتها - د. نايف خرما ود. على حجاج - عالم المعرفة الكويت ١٩٨٨ م .
- اللغات السامية - تولدك - تعریف د. رمضان عبد العواب - المطبعة الكمالية ١٩٦٣ .
- اللغة واضطرابات النطق والكلام د. فيصل خير زاده - ط دار المريخ للنشر - السعودية .
- اللهجات العربية في التراث د. أحمد علم الدين الجندي - الدار العربية للكتاب ١٩٨٣ .
- المباحث اللغوية د. مصطفى جواد - القاهرة ١٩٥٥ م .
- الحكم - ابن سيده (علي بن إسماعيل - تحقيق مصطفى السقا ود. حسين نصار - البابي الخلبي ط ١ ١٩٥٨ .
- مختصر العين - أبو بكر الزبيدي - تحقيق علال الفاسي - مكتبة الوحدة العربية - الدار البيضاء سنة ١٩٦٣ .
- مراتب النحوين - أبو الطيب اللغوى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة ١٩٥٥ م .

- المزهر - جلال الدين السيوطي ط الثالثة دار إحياء الكتب العربية وط البالى الحلبي تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين .
- المعاجم العربية د. عبد الله درويش - المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة ١٤٠٦ م ١٩٨٦ .
- المعاجم العربية دكتور عبد الصبور شاهين - محاضرات مخطوطة أقيمت على طلاب دار العلوم سنة ١٩٧١ - ١٩٧٢ .
- المعاجم اللغوية د. محمد أحمد أبو الفرج ط بيروت ١٩٦٦ م .
- المعجم العربي - د. حسين نصار - مكتبة مصر للطباعة .
- المعجم العربي د. عبد القادر الفهري - دار توبقال للنشر - الدار البيضاء ١٩٨٦ م .
- المعجمية العربية - الألب مرمرجي الدومنيكي - القدس ١٩٣٧ م .
- المغرب والدخليل - للجواليقى - تحقيق أحمد محمد شاكر - دار الكتب بالقاهرة ١٣٦١ هـ .
- المغني في تصریف الأفعال د. محمد عبد الخالق عضیمة - دار الحديث ط ٣ ١٩٦٢ م .
- مفاتیح الالسنية - جورج مونین - تعریف الطوب البکوش - منشورات الجديد تونس ١٩٨١ م .
- مقدمة لدراسة فقة اللغة - د. محمد أبو الفرج - دار النهضة - بيروت ١٩٦٦ م .
- من أسرار اللغة - د. إبراهيم أنيس - الأنجلو المصرية ١٩٨٥ م .

- مناهج البحث في اللغة - د. تمام حسان - دار الثقافة - الدار البيضاء . م ١٩٧٩
- منهج الأدب واللغة . أنطوان مييه - ترجمة د. محمد مندور - دار العلم للملائين سنة ١٩٤٦ م .
- النشر في القراءات العشر لابن الجوزي - دار الكتب العلمية بيروت .
- نشوء اللغة العربية ونحوها وأحوالها - الأب أنسطاس ماري الكرملي - القاهرة . م ١٩٤٨ .

مراجع أجنبية

- Arabic lexicography, J.A Haywood, Leiden, 1965 .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٩	مقدمة
١٤	الفصل الأول : بين النظرية والتطبيق
٣٠	الفصل الثاني : الأساس الصوتي
٦٢	الفصل الثالث : الأساس الكمي
١٠٨	الفصل الرابع : الأساس التقليدي
١٤٠	الفصل الخامس : الأساس المذرئ
١٧٤	الخاتمة
١٨٣	ثبات المراجع

رقم ايداع

٩٢ / ٢٠٠٦

رقم دولسي

977 - 00 - 3728-7

دار الهانى للطباعه - شبرا الخيمه
٢٢١٢٠٥٥ ت